أحمد أبوزيد

# حضارة اللغـــة

قصة اللغة هي قصة الحضارة الانسانية .والحضارة لا تنعكس بوضوح في شيء مثلما تنعكس في الكلام واللغة بحيث يذهب بعض الكتاب الى القول بأن كل ما قد يظهر في لغـة مجتمـع من المجتمعات من نقص أو قصور هو دليل قاطع على مدى تخلف ذلك المجتمع في ركب الحضـارة . فالخبرة الانسانية المتراكمة على مدى الزمن تنعكس في اللغة وتجد تعبيرا لها فيها ، سواء اتخذ ذلك التعبير شكل الكلام العادى أو الكتابة المعروفة اوالرسوم والنقوش التصويرية التى تركها الانسان المبكر على جدران الكهوف او حتى في الانجازات الفنية المختلفة من معمارية أو موسيقية أو حركية كالرقص والتمثيل الصامت ، ما دامت كلها تترجم في آخر الامر الى ألفاظ وتصورات ومفهومات وما دامت تعبر عن أفكارنا ومشاعرنا وتنقلها الـى الآخرين . فاللغة حتى في معناها الضيق الرقيق الذى يقتصر على الكلام والكتابة عنصر اساسي في حياة البشر ، اذ بدونها يصعب قيام الحيـاة الاجتماعية المتماسكة المتكاملة وبالتالي يستحيل قيام الحضارة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من نظم اجتماعية وانماط ثقافية وقيم أخلاقية ومبادىء ومثل بل وحياة مادية ومخترعات ، لانها هي أداة التفاهم الذى هو أساس التعاون بين افـــرادالجماعة . وهذا كله قد يغرى المرء بأن يتساءل عما كان يحدث لو ان الانسان لم يعرف اللغة ،وعما عسى أن يحدث لو اختفت لغات البشر عن الوجود ؟

وقد يكون من الصعب الوصول الى جواب شاف ومحدد لمثل هذه التساؤلات ، ومع ذلك فقد يمكن القول ببساطة ان كل ما أمكن للانسان انجازه خلال تاريخه الطويل — او خلال جزء كبير منه على الاقل — لا بد ان يختفي ويزول من الوجود اذا اختفت اللغة . وقد يعجز الكثيرون عن تصور مثل هذا الوضع لاننا درجنا على ان نفكر ونتكلم ونعبر عن أفكارنا بالكلام بحيث أصبحت اللغة —

وليس مجرد الكلام أو اخراج الاصوات ــ تبدو لنامسألة تلقائية أو آلية أو عملا طبيعيا كالتنفس أو اختلاج العين، وذلك نظرا لان اللغة تؤلف جزءا هاما وحيويا من حياتنا اليومية ومن مناشطنا العادية ، بينما هي فى واقع الامر أبعد ما تكون عن الآلية او التلقائية أو الفريزة . فالطفل يتعلم اللغة ، وهو أمر يحتاج الى كثير من الوقت والجهد والعناء . بل ان الرجل يظل خاضعا لهذه العملية الطويلة الشاقة طيلة حياته وعن طريقها يكتسب مصطلحات جديدة وتزيد ثروته من الالفاظ ومفردات اللغة وتنفتح امامه أبواب جديدة وميادين رحبة من المعرفة نتيجة لازدياد خبراته واتصالاته بالناس من ناحية، وتعقد الحياة الاجتماعية والثقافية والتكنولوجية فى المجتمع الذى يعيش فيه من ناحية أخرى . ومع صعوبة تقدير الدور الرئيسي الذى تلعبه اللغة فى سلوكنا الاجتماعي حق التقدير فانه يمكن القول انه لولا اللغة لما كانت هناك كتابة أو أى وسيلة منهجية منظمة ومستمرة للاتصال والتفاهم ونقل الافكار المجردة بمثل هذه الدقة ، وهذا من شأنه أن يضع قيودا شديدة على امكانيات التعلم ، مما يضطر فى آخر الامر الى أن نتعلم عن طريق التجربة والخطأ وعن طريق ملاحظة سلوك الآخرين وافعالهم ومحاكاتها تماما مثلما تفعل الحيوانات الاخرى . وسوف يترتب على ذلك بالضرورة اختفاء تاريخ الانسانية كله واندثاره ، اذ لن تكون هناك وسيلة دقيقة ومختصرة لتسجيل الاحداث وروايتها وتناقلها عبر الزمن ، بل لن تكون هناك وسيلة لاحياء الماضي واعادة التجارب القديمة وتوصيلها للآخرين فضلا عن نقل افكارنا الخاصة وآرائنا الذاتية للغير ومشاركة هؤلاء الغير فى العمليات العقلية التى تدور فى أذهانهم . بل ومن المحتمل أن نعجز حتى عن التفكير بالمرة ، وذلك لو قبلنا ما يقوله بعض علماء النفس من ارتباط الفكر ذاته باللغة وان عملية التفكير هى فى حقيقتها وجوهرها نوع من الحديث الى النفس أو الذات . كذلك سوف يختفي من المجتمع ــ كما يقول بعض علماء الاجتماع والانثربولوجيا الذين تعرضوا لهذه المشكلة ــ كل عمل تعاوني مهما كان بسيطا ، اذ لن تكون هناك حينئذ أى وسيلة لوضع خطة لمثل هذا العمل وشرحها للآخرين ثم توجيه أعمال المشتركين فى تنفيذها وتنسيق جهودهم لانجازها . والاهم من هذا كله هو ان المجتمع بغير لغة لن تكون لديه وسيلة لضمان استمرار السلوك الاجتماعي الذى يلزم ــ مع التعلم ــ لخلق الثقافة والحضارة . وهذا كله معناه ان المجتمع الانساني سوف يكون أشبه بتجمعات القردة العليا التي تشبه فى تكوينها الجسمي بناء الجسم البشرى والتى تتعلم من التجارب والخبرات السابقة وتستطيع استخدام بعض الآلات والادوات ولكنها تعجز عن أن تصل فى ذلك كله الى المستوى الذى يصل اليه الانسان ، والتى تفتقر على اية حال الى اللغة والى الحضارة .(١)

وهذا يعني افتراض وجود علاقة قوية بين اللغة والحضارة أو الثقافة . . . ولقد درج الكتاب على الكلام عن « لغة الحضارة » وكيف ان حضارة معينة بالذات تجد لها تعبيرا واضحا وصادقا من الفاظ ومصطلحات اللغة السائدة فى المجتمع الذى توجد فيه . فمفردات اللغة والاساليب والتصورات وبناء الجملة والتراكيب اللغوية والتشبيهات والاستعارات وما الى ذلك فى المجتمع الصناعي الحديث الذى يتميز بتعقد نظمه الاجتماعية والاقتصادية وبشعور أعضائه بفرديتهم الذاتية ، تختلف اختلافا جذريا عن مفردات اللغة وبنائها واساليبها فى المجتمع البدوى القبلي الذى يعيش على الرعى والترحال والذى يرتبط الفرد فيه ارتباطا وثيقا بالجماعة القبلية التى ينتمي اليها

(١) انظر فى ذلك : Hoijer, H.L.; "Language and Writing" in Shapiro, H. (Ed.) : Man, Culture and Society, Oxford University Press, N.Y., 1960, pp. 196 — 7, Pei, M.; The Story of Language, Mentor Books, N.Y. 1960, pp. 161—66.

بحيث تكاد شخصيته تفنى وتذوب تماما فى تلك الجماعة . وهذه مسألة كثر الكلام فيها . ولكن الموضوع الذى نعرض له هنا يدور على العكس من ذلك حول فكرة « حضارة اللغة » وهي فكرة مستعارة من عبارة عارضة وردت فى محاضرة للفيلسوف الرياضي الشهير ألفرد نورث وايتهيد Alfred Northe Whitehead ونشرها فى كتاب بعنوان «انماط الفكر Modes of Thought (٢)» واستخدام هذا التعبير عنوانا لهذه الدراسة واتخاذه موضوعا لها يعني التسليم منذ البداية بأن ثمة حضارة معينة هي حضارتنا الانسانية يرتبط وجودها ارتباطا قويا باللغة بحيث يمكن القول انه لولا وجود اللغة لما قامت هذه الحضارة ، أو لظهرت حضارة اخرى من نوع مختلف عن حضارتنا المعروفة . فالجنس البشرى يمتاز على بقية الكائنات العضوية الحية ـ بما فيها القردة العليا التى تعتبر أقرب هذه الكائنات العضوية الينا ـ بالفكر واللغة . وعلى الرغم من ان القردة العليا بالذات تعيش فى تجمعات يتميز بعضها بكبر الحجم ، وعلى الرغم من قدرتها على تعلم بعض الحركات ومحاكاة بعضها، فانها تفتقر الى اللغة والى الحضارة بالمعنى الذى نفهمه نحن من هاتين الكلمتين . وعلى ذلك فان دراسة اللغة باعتبارها عاملا من عوامل الحضارة ومحاولة التعرف على خصائص تلك الحضارة سوف تستدعى التعرض لكثير من الامور المعقدة التى تتصل بعدد من فروع التخصص المختلفة ، اذ لا بد من ان نعرض لنشأة الاتصال فى المجتمع الانساني بتلك التى نجدها فى بعض المجتمعات الاخرى شبه الانسانية ، كما سوف تتطلب منا محاولة التعرف على وظائف اللغة وعلاقتها بالثقافة وانفراد الانسان بهما ، وغير ذلك من الموضوعات المتشعبة المعقدة التى لم يصل العلماء فى بعضها على الاقل الى رأى قاطع ونهائي رغم كثرة ما كتب فيها .

## (١)

ولعل اول واهم حقيقة يمكن تقريرها عن اللغة هي عموميتها وانتشارها فى كل المجتمعات الانسانية المعروفة فى مختلف مراحل التاريخ والتطور . واذا كان الشك ينتاب بعض علماء الاجتماع والانثربولوجيا حول وجود بعض الظواهر الاجتماعية الاخرى كالدين او الاسرة عند الشعوب « البدائية » البسيطة التى تحتل مكانة دنيا من السلم التطورى، بل ويذكرون بالفعل اسماء بعض القبائل التى لا تعرف ( فى اعتقاد هؤلاء العلماء ـ وهو اعتقاد خاطىء ) الدين أو الحياة العائلية فليس هناك دليل واحد على وجود جماعة انسانية واحدة ـ **مهما بلغت من التأخير ـ لا تعرف اللغة** فى صورتها الكلامية على الاقل . فأكثر الشعوب تأخرا او تخلفا وبدائية مثل جماعات البوشمن الذين يعيشون **فى جنوب افريقيا يستخدمون فى حديثهم لغة على درجة** من الرمزية لا تقل بأى حال ـ على ما يقول ادوارد سابير ـ عن رمزية اللغة التى يستخدمها الرجل الفرنسي المثقف (٣) . فاللغة بمعناها الدقيق ظاهرة ينفرد بها الانسان عن بقية الكائنات العضوية الحية التى لا تملك وسيلة رمزية حقا للتعبير عن مشاعرها وأفكارها ـ ان صح استخدام هذه الكلمة الاخيرة . وكما يقول آرثر كيسلر فى كتابه الطريف « العفريت فى الآلة » ان ظهور اللغة الرمزية ـ فى صورتها الكلامية اولا ثم فى صورتها المكتوبة او الكتابة ـ يمثل أهم عنصر من عناصر التمييز بين الحيوان والانسان ، وان كان ذلك لا ينفي وجود وسائل اخرى للاتصال عند بعض الحيوانات « الاجتماعية » عن طريق الاصوات والحركات التى يبدو ان لها مدلولا معينا عند

---

(٢) Whitehead, A.N; Modes of Thought (1938); The Free Press, N.Y. 1968.

(٣) Sapir, E.; Language, Harcourt Brace, N.Y. 1921, pp. 21—3

أفراد النوع الذى يستخدمها، الا ان هذه الاصوات والحركات لا ترقى الى مرتبة اللغة ، فهي فى عمومها وسائل غير لغوية وعلى درجة عالية من البساطة والرتابة . فالنحل مثلا يتبادل الرسائل عن طريق الرائحة والرقص فى الخلايا . كما ان بعض الحيوانات تتبادل الرسائل عن طريق اطلاق اصوات معينة بحيث يستخدم بعض الكتاب لذلك اسم « لغة النباح » أو « لغة الصهيل » وما اليها . ويصل هذا النوع من « التعبير » بالاصوات ذروته عند بعض القردة العليا التى تستطيع أن تحذر بعضها بعضا من اقتراب الخطر أو ترشد بعضها بعضا الى مناطق توافر الطعام وما الى ذلك . (٤)

ولكن اذا كان الامر كذلك ، فهل هذا يعني ان اللغة كانت دائما احدى الخصائص الاساسية المميزة للانسان منذ اقدم مراحل التطور رانها كانت موجودة عند الآدميات المبكرة ــ مثل انسان كرومانيون Cro Magnon المعروف ان بعض هذه الآدميات الاولى كانت تعرف الفن التصويري أو التسجيلي وانها استطاعت عن طريق الرسوم والنقوش البدائية التى كانت تنقشها على جدران الكهوف من ان تتبادل الرسائل وتسجل الاحداث وان تعبر عما يدور فى اذهانها . ولكن هل تعتبر تلك الرسوم بمثابة محاولة أولية لها معناها ودلالتها كوسيلة للاتصال وتوصيل الافكار والمشاعر قبل أن تظهر اللغة الكلامية (٥). لا شك انه من الصعوبة بمكان الوصول الى راى حاسم وقاطع ونهائي فى ذلك نظرا لقلة المعلومات التى لدينا عن هذا الموضوع . فوجود مثل هذه الرسوم والنقوش قد يكون بديلا للكتابة بمعناها الحالي ولكن من الصعب القول انه كان بديلا عن الكلام أو ان الانسان المبكر لم يكن يستطيع التفاهم وتبادل الراى الا عن طريق التصوير والرسم . والذى يهمنا هنا هو ان الانسان هو الكائن الوحيد الذى عرف اللغة ووسائل الاتصال اللغوية ، وان له فى تركيبه البيولوجي نفسه ما يساعد على ظهور اللغة والكلام وليس مجرد اصدار الاصوات التى يشترك فيها مع بقية هذه الكائنات . فالانسان يتميز على الكائنات العضوية الحية الاخرى بكبر حجم مخه بالنسبة لحجم جسمه ، ومخ الانسان الحديث أو الانسان العاقل homo sapiens اكبر بكثير من مخ الآدميات الاخرى فضلا عن أمخاخ القردة العليا وبقية الحيوانات . وتعتبر هذه الميزة هي العامل الرئيسي الذى ساعده على أن يقيم ثقافة خاصة به ، وذلك بالاضافة الى بعض المميزات والخصائص الفيزيقية الاخرى مثل قدرة الاعصاب على التحكم بدقة فى عضلات اللسان والحنجرة مما يساعد على نشأة الكلام المفصل ذى المقاطع المتميزة ، وذلك فضلا عن وجود نوع من التناظر والترابط بين الاحساسات العضلية الناشئة عن حركة هذه الاعضاء وحاسة السمع . ويبدو ان اسلافنا الاوائل ، حتى انسان الصين Sinanthropus أو انسان بكين Peking Man وانسان جاوة الذى يعرف باسم الانسان المعتدل القامة Pithecanthropus وامثالهم من الاعضاء المبكرين فى العائلة البشرية كان فى استطاعتهم عموما الكلام . فالاختلافات الواضحة فى مخ الانسان عن أمخاخ القردة العليا ثم نمو جهازة العصبي بشكل أكثر مما نجده عندها، ترتبط كلها بوجود اختلافات او تعديلات فى طريقة ارتباط حركات عضلات اللسان بشكل غير معهود فى القردة العليا أو حتى اى نوع آخر من « الآدميات ». وقد لعبت هذه الخاصية التشريحية دورا هاما حتى تمكن الانسان من التحكم فى الاصوات التى يصدرها وتنويع هذه الاصوات أكثر مما يستطيعه اى حيوان آخر . كذلك يتميز الانسان بقلة غرائزه الموروثة . ويذهب البعض فى ذلك الى ان غرائز الانسان هي فى الاغلب ميول عامة جدا ، ولذا كان يتعين على العقل البشرى ان « يتعلم بالتجربة الاستجابات المناسبة للمواقف المختلفة . وعملية التعلم تتم جزئيا بمساعدة الابوين كما هو الحال فى كل الثدييات ، ولكن

---

(٤) Koestler, A.; The Ghost in the Machine, Hutchinson, London 1967, p. 19.

(٥) Pei, op. cit., p. 10

الانسان ينفرد عنها بأن عملية التربية عنده يتـم تنفيذها وانجازها ليس فقط عن طريق القـدوة والمثل بحيث يقلد الابناء آباءهم ،بل وايضا عـن طريق القواعد والمبادىء العامة المجردة التى يمكن نقلها وتوصيلها للاجيال التالية ، عن طريق الكلام الذى لم يكن ليتيسر لولا ذلك التركيب الفسيولوجى الخاص بالانسان والذى يتمثل — فى هذا المجال بالذات — بتركيب اللسان والحنجرة والجهاز العصبي . » (٦)

ومن المحتمل ان الكائنات البشرية القديمة التى انحدر الانسان العاقل منها كانت تعيش فى جماعات تشبه الجماعات الحيوانية الموجودة الآن ،بمعنى انها لم تكن تنسق أعمالها الا بقدر ضئيل كما ان كلا منها كان يعمل على حدة فى الاغلب الا فيما يتعلق بالعناية بالصغار وحين تضطرهـا الظروف لذلك ،وبخاصة حين يتهددها خطـر خارجي . وقـد اقتضت ظروف الحياة وبخاصة فى مرحلة الصيد والقنص التى مر بها المجتمـع الانساني وهى مرحلة مبكرة من حياته الى ازدياد التعاون بين أفراد الجماعة وظهرت اللغة بذلك — على ما يقول العلماء التطوريون — كأداة لتسهيل العمل التعاوني . ومع ذلك فان من الصعب القول بأن التعاون هو السبب الوحيد فى نشأة اللغة ، لان كثيرا من الجماعات الحشرية يقوم بينها نوع من التعاون الوثيق دون أن يكون لديها لغات ، وان كان التعاون عندها يقوم على اسس مختلفة عما نجده فى المجتمع الانساني ، لان الناس لا يولدون للقيام بأدوار محددة بالذات وانما يتعلمون سلوكهم من المجتمع ، وتقوم اللغـة بدور هـام جـدا فى هذا المجال . (٧)

ولقد أجريت ثلاث محاولات على الاقل خلال التاريخ لعزل بعض الاطفال الصغار قبل أن يبدأوا الكلام وذلك للتعرف على ما اذا كان فى استطاعتهم خلق لغة خاصة بهم ، وبالتالي للتأكد مما اذا كانت اللغة ظاهرة غريزة تلقائية . وقد قام بأولى هذه المحاولات الثلاثة المعروفة بسماتيك فرعون مصر ، وقام بالثانية فردريك الثاني فى صقلية عام ١٢٠٠ ميلادية ، وقام بالثالثة الملك جيمس الرابع فى اسكتلنده حوالي عام ١٥٠٠ ميلادية . وربما كانت هناك محاولات وتجارب أخرى غير معروفة او غير مشهورة تماما، ولكن يوجد الى جانب ذلك قصص عديدة حديثة نسبيا عن اطفال نشأوا بين القردة او الذئاب او الكلاب او الغزلان ، وكل هذه القصص والمحاولات لمعرفة نشأة اللغة لا تضيف شيئا الى معلوماتنا سوى ان هؤلاء الاطفال الذين لم يتعلموا منذ صغرهم اللغات الانسانية، لم يلبثوا أن تقبلوا تلك اللغات بسهولة ويسر بعد ذلك حين اتصلوا بالناس ، وهو امر لا يمكن للحيوانات التي كانوا يلعبون معها ان تفعله على ما يقول ماريون بيى Marion Pei . (٨) وربما كان ذلك دليلا على تكيف الاجهزة الصوتية عند الانسان لتقبل اللغة والكلام . انما المهم هنا هـو ان اصـوات الحيوانات — سواء اعتبرناها « لغات » أم لـم نعتبرها كذلك — تتميز بالرتابة وعدم التنـوع او التغير . فالكلاب كانت تنبح دائما وكذلك كانت القطط تموء منذ اقدم العهود مثلما تفعل الآن . وصحيح ان بعض الشراح الاغريق الساخريـن شبهوا صوت الغنم بالحرف اليونانى الذى لـه قيمة حرف ( الباء ) ، الا أن الحروف اليونانيـة ذاتها تغيرت ولم يتغير صوت الغنم . وعلى العكس

---

(٦) Childe, E. Gordon; Man Makes Himself, Fontana Library, Collins, London 1966, pp. 26—8.

(٧) Heijer, in Shapiro (ed): op. cit., pp. 201—202

(٨) Pei., op. cit., p. 16

من ذلك فان اللغة الانسانية تكشف عن درجة عالية جدا من التنوع ، سواء فى الزمان او المكان ، ويعتبر النشاط والتغير هما جوهر اللغات الحية(٩)

★ ★ ★

والرأى السائد عند الغالبية العظمى من الكتاب وبخاصة علماء الانثربولوجيا ، هو أن اللغة قديمة قدم الانسان وانها ظهرت بظهوره ، واذا كان بعض انصار المدرسة التطورية يذهبون الى القول بان الانسانية مرت بمرحلة لم تكن تعرف فيها اللغة، فانهم يقيمون ذلك على اساس تخميني بحت حتى يتفق رأيهم مع النظرية التطورية العامة التي ترى أن الاشياء تبدأ بداية بسيطة جدا ثم تتدرج فى التعقيد بحيث تصل الى ماهي عليه الآن . ومع أن العلماء التطوريين اسدوا خدمات جليلة لدراسة اللغة من الناحية التطورية فليس هناك ما يسند زعمهم بأن المجتمع الانساني مر بمرحلة لم يعرف فيها اللغة ، بل اننا نجد على العكس من ذلك ميلا شديدا واضحا الى تأكيد ظهور اللغة مع نشأة المجتمع ، وان اللغة كانت ملازمة لظهور بقية ملامح الثقافة القديمة مثل اختراع النار او شطف الصوان ان لم تكن أقدم منها ــ وهذا هو الاغلب ــ لان مثل هذه المظاهر الثقافية والاختراعات المختلفة لم تكن لتظهر لولاوجود اللغة التي هي اداة للتعبير والتفاهم . (١٠) وعلى ذلك فالارجح ان الانسان عرف الكلام فى الوقت ذاته الذى خطا فيه اولى خطواته لتكوين وتكوين تقليد ثقافي خاص وهذا يرجع الى مليون سنة تقريبا او اكثر . ويحاول بعض علماء الانثربولوجيا ان يدللوا على قدم اللغة ببعض الادلة غير المباشرة نظرا لانه ليس من السهل الاحتفاظ بالكلام ، لانه لايترك وراءه اثرا باقيا يمكن الرجوع اليه مثلما نرجع مثلا الى الادوات الحجرية . وكل الآثار والتسجيلات المكتوبة تعتبر من الناحية الانثربولوجية البحتة حديثة جدا لان الكتابة لم تظهر لاول مرة فى تاريخ الانسان الا منذ عام ٤٠٠٠ ق.م. تقريبا ، وكانت مقصورة حينذاك على عدد قليل جدا من المجتمعات . وكثير من اللغات الاندو اوربية كالانجليزية مثلا لا يوجد لدينا عنها اية تسجيلات مكتوبة قبل القرن الثامن الميلادى . بل ان اقدم كتابة عن اى لغة اندو أوروبية ــ وهي لغة الانديك ريجفيدا Indic Regveda لا يرجع تاريخها الى اقدم من سنة ١٢٠٠ ق.م وبالمثل فاننا لانكاد نجد اية كتابات متماسكة فى معظم اللغات السائدة عند المجتمعات « البدائية » الموجودة فى الوقت الراهن . والمبرر الوحيد للقول بان اللغة كانت موجودة منذ اقدم عصور التكنولوجيا البسيطة فى العصر الحجرى القديم هو ان الثقافة حتى المادية منها لم تظهر الا حين عرف الانسان كيف ( يرمز ) الى الاشياء ، أى ان ظهور الثقافة ارتبط بظهور ( الرموز ) اذ بدون الرموز لا ترتفع الآدميات الى مستوى أعلى بكثير من بعض القردة الحالية كالشمبانزى مثلا . والبقايا الاركيولوجية تدلنا على ان الانسان المبكر كان قادرا منذ البداية ــ اى منذ مليون سنة تقريبا ــ ليس فقط على استخدام الالات والادوات البسيطة بل وايضا ــ وهذا هو المهم ــ على نقل معرفته الى ذريته والى الاجيال التالية التى ادخلت عليها الكثير من التعديلات والتحسينات والاضافات ، وان كان هذا تم بطبيعة الحال ببطء شديد . (١١)

---

( ٩ ) بل ان اللغات « الميتة » ذاتها قد تخضع هي ايضا للتغيير كما هو الحال مثلا حين حاول الفاتيكان أن يدخل « موتوسيكل » وهي كلمة حديثة نسبيا ــ الى مفردات اللغة اللاتينية فاسماه Birto ignifero latice incita اى « عربة ذات عجلتين تسير بسائل يحمل النار » ( فى جوفه )ــ القطر Loc. cit.

(١٠) Sapir, Language, op. cit., P. 23

(١١) Beals, R.L. & Hoijer, H.; An Intooduction to Anthropology, Macmillan, N.Y. 1959, p. 573.

ومعظم الادلـة التي يستشــهد بها هؤلاءالعلماء للتدليل على قدم اللغة مستمدة من اللغات الحديثة ، الى جانب ما سبق تقريره بالفعل من‌اننا لا نعرف اى شعب من الشعوب القديمة او الحديثة لم يعرف اللغة . ويمكن ان نلخص هذه‌الادلة ( غير المباشــرة ) فى ان اللغات الحديثــة الموجودة فى الوقت الحاضر فى العالم متعددة الى‌ابعد حدود التعدد وشديدة الاختلاف والتفاوت . ولسنا نعرف عدد اللغات الموجودة الآن بالفعــل‌ولكن لابد أنها تصل الى بضعة آلاف . وكثير من هذه اللغات متصل بعضها ببعض مما يعني انهامستمدة من اصل واحد مشترك اقدم منها . وبذلك فانها تنتمي الى عائلات لغويــة معينة . وهناك الآن ــ على مايقال ــ مئات من هذه‌العائلات اللغوية ، ومعظمها لا يعكس اى نوع من التشابه‌فيما بينها مما قد يدل على انه اذا كانت لها كلها أصل واحد ( وهو مالم يثبت حتى الآن على اية‌حال ) فلا بد من أن يكون ذلك الاصل قديما ثم اختفى بمرور الزمن . فوجود اللغة عند الجميع‌مع تنوع اللغات الحديثة لايعنى ــ فى نظر بعض علماء الانثربولوجيا ــ سوى ان اللغة قديمة جدا . فاذا اضفنا الى ذلك كله ان اللغة تتغير فى العادة ببطء شديد فان التفاوت الكبير الذى نشاهــده‌بين اللغات التي تنتمى الى عائلة لغوية واحــدة يمكن ان يعتبر دليلا على قدم هذه اللغات ، لان‌مثل هذه الاختلافات لا يمكن ان تكون تمت الاخلال احقاب طويلة جدا من الزمن (١٢) .

ولقد شغل البحث عن اصل اللغة ونشأتها‌اذهان الكثيرين من العلماء والكتاب . ويبدو ان المشكلة ترجع الى العصور الاولى للفكر الانساني‌حيث نجد عددا كبيرا من الاساطير القديمة تدور كلها حول أصل اللغة وتحاول أن ترد اللغة الى‌مصدر فائق للطبيعة او غيبى اعجــازى ، .وان الانسان تعلم اللغة على ايدى معلم الهى . وكان‌المظنون دائما ان حل مشكلة اصل اللغة ســوف يؤدى الى حل كل الاشكالات الخاصة بها ، ويرجع‌الاهتمام بدراسة أصل اللغة ونشأتها الى علماء القرن التاسع عشر الذين كان يغلب عليهم الاتجاه‌التاريخي والتطورى فى مختلف مجالات البحــث والمعرفة بقصــد التعــرف على الاصــول الاولى‌للاشياء ، مثلما بحث داروين عن الاصــل الاول للانواع فى كتابه العظيم المشهور . وكان الســائد‌حينئذ ان التاريخ هو المفتاح الوحيد للدراســة العلمية للغة والكلام الانساني ، ولذا نجد معظم‌الانجازات الكبرى فى اللغة تأتى من جانب علماء لهم اهتمامات تاريخية لدرجة كانت تمنعهم مــن‌الاهتمــام بأى اتجــاه فكرى آخــر ، وان كان هرمان بول Hermann Paul اثار الاعتراض‌بأن البحث التاريخي وحده لايمكن ان يحل كل مشكلات اللغة الانسانية ، وان المعرفة التاريخية‌تحتاج الى ان تستكمل دائما بدراسة اللغة فى ذواتها كنسق متكامل . فلكل فرع من فــروع‌المعرفة التاريخية ، على مايقول كاسيرر ، يوجد

---

( ١٢ ) من الصعب تصنيف اللغات قديمها وحديثها فى‌حدود والفاظ ودرجات النمو والتطور . فليس ثمة لغــات بدائية واخرى اكثر تطورا من ناحية البناء ، اذ لكل لغة من‌اللغات نسقها الواضح من الاصوات‌الكلامية Speech-sounds وهي اصوات محددة فى العدد ومتمايزة تماما فيما بينها واحدة‌عن الاخرى ، ولوضع هذه الاصوات بعضها بجانب بعض لتكوين كلمات وعبارات وجمل تبعا لقواعد معينة . ومن هذه‌الناحية فانه لا يوجد فارق بين اللغات عند كل الشعوب التى تملك ثقافات متفاوتة فى درجة التقدم . وفى ذلك تختلف اللغة‌عن بقية السمات الثقافية . يضاف الى ذلك ان لكــل الجماعات ــ بصرف النظر عن مدى تطورها او تخلفهــا‌الثقافي ــ مفردات لغوية تكفي لاشباع حاجاتها ، واذا كان حجم‌هذه‌المفردات يتفاوت من لغة‌لاخرى فان‌هذا التفاوت‌هو تفاوت ثقافي وليس تفاوتا لغويا،فقد يكون للجماعة‌المتخلفة ثقافيا حصيلة من المفردات اقل مما نجده فى المجتمعات المتقدمة ،ولكن قدرة هذه اللغات على استيعاب المفردات قدرة غــير محدودة ، وذلك عن طريق الابتكار او الاستعارة من اللغات‌الاخرى كلما قامت الحاجة لذلك . واخيرا فان لكل اللغات نظاما محددا من قواعد اللغة التى هي باختصار عبارة عن‌ترتيب معقول للاصوات او مركبات الاصوات لعمل كلمات وعبارات وجمل ، وهذا الترتيب يتم حسب قواعد محددة فى‌كل اللغات وفى كل المجتمعات . انظر فى ذلك
Hoijer, H.; "Language and Writing" in Shapiro, op. cit, pp. 198-99.

جانب يعالج الظروف العامة التي تطورت تحتها الاحداث التاريخية وتبحث فى العوامل التي تظل قائمة ومستمرة ولا تخضع للتغير ، او على الاقل تقاوم التغيير فى كل نواحي الظواهر الانسانية . يضاف الى ذلك ان علماء ذلك القرن كانوا يهتمون بالتفسيرات السيكولوجية الى جانب التأويل التاريخي . وواضح بأن هذين النوعين من التأويلات كثيرا مايسيئان الى الدراسة البنائية المنهجية لاى لغة من اللغات ، اذ لابد من أن تأتي الدراسة البنائية موضوعية الى حد كبير وغير متأثرة باية افكار سابقة حتى يمكن استخدامها بطريقة مجدية عند عقد المقارنات (١٣) .

ولقد اختلفت الآراء حول اصل اللغة اختلافا كبيرا على ما ذكرنا . وثمة نظريات كثيرة فى ذلك لا داعي للدخول فى تفاصيلها وان كان يجدر الاشارة الى نظريتين اساسيتين بالاضافة الى الراى الذى يرد اللغة الى أصل الهي او ميتافيزيقي(١٤) . واولى هاتين النظريتين ترى ان الكلمات ظهرت فى الاصل كنتيجة مباشرة للاصوات والصيحات والصرخات التي تصدر عن الفرد للتعبير عن بعض المشاعر والوجدانات والانفعالات ، ثم لم تلبث هذه الاصوات ان اتخذت بعد ذلك معانى محددة واصبحت تقوم بوظيفة الاتصال وليس مجرد التعبير عن الانفعالات . ولكن هذه النظرية التي كانت تلاقى كثيرا من القبول لا تحل المشكلة فى الحقيقة ، لان ثمة هوة سحيقة تفصل بين الصراخ والصيحات المعبرة عن الانفعال والكلمة ذات المدلول المحدد والمعنى الدقيق ، بحيث يمكن القول مع كاسيرر ان هذا الصوت الانفعالي العاطفي هو فى حقيقة الامر انكار للغة ، لاننا لا نلجأ الى تلك الاصوات الا حين يكون المرء عاجزا عن الكلام او حين يكون راغبا عن الكلام . فالمشكلة تنحصر اذن فى الوصول الى تفسير معقول للانتقال من مجرد الصراخ الى الكلام . وقد ذهب فريق من العلماء الى ان هذا الانتقال حدث تدريجيا وببطء شديد نتيجة لنجاح الانسان فى التمييز بين الاشياء ومعرفتها عن طريق ادراكه الواعي وليس عن طريق المشاعر والانفعالات ، اى انه بدأ يدرك وجودها فى الخارج دون أن يكتفى بمجرد الاحساس بذلك الوجود . واما النظرية الثانية فترى ان الاصوات وبالتالي الكلمات ليست الا محاكاة للاشياء الموجودة فى الطبيعة ، او بقول أدق فان اللغة ظهرت نتيجة لتقليد اصوات الطبيعة

---

( ١٣ ) Cassirer, op. cit., pp. 154-55.

( ١٤ ) مع ان النظرية الدينية لم تعد تجد قبولا الآن عند اغلب العلماء فلا يزال كثير من الشعوب التى توصف عادة بانها شعوب بدائية تعتقد بان اللغة جاءت من أصل الهى مقدس . ولم يكن هذا الراى شائعا فى المجتمعات القديمة فقط وانما نجده فى بعض المجتمعات الاوروبية ايضا . ففي القرن السابع عشر مثلا كان بعض العلماء السويديين يعتقدون ان الله يتكلم السويدية فى جنات عدن بينما يتكلم آدم اللغة الدينماركية وكانت الافعى تنطق بالفرنسية . وفى احد المؤتمرات الذى عقد عام ١٩٣٤ دار نقاش حول أصل اللغة فأثار العلماء الاتراك مشكلة ان اللغة التركية هي اصل جميع اللغات وان كل الكلمات اشتقت اساسا من الكلمة التركية التي تعني « الشمس » باعتبار ان الشمس هي اول شيء يثير انتباه الانسان . ومن ناحية اخرى نجد عالما مثل داروين يقدم لنا تفسيرا آليا للغة . فيرى ان الكلام فى اصله ليس سوى تمثيل بالفم ، حاولت الاعضاء الصوتية فيه ان تقلد حركات واشارات الايدى . وثمة نظريات اخرى لاتقل عن ذلك غرابة وطرافة وابتعادا فى الوقت ذاته عن العلم الدقيق الصحيح مثل القول بان ثمة علاقة خفية بين الصوت والمعنى. وكل هذه النظريات شبه العلمية نجدها عند الفلاسفة الاغريق مثل فيثاغورس وافلاطون والرواقيين الذين ذهبوا الى ان اللغة نشأت تلبية لبعض الحاجات الطبيعية الكامنة اى من الطبيعة ذاتها ، بينما يذهب ديمقريطس وارسطو والابيقوريون الى انها نشأت عن طريق الاتفاق والتراضي دون ان يذكروا كيف امكن الوصول الى ذلك الاتفاق ، وان لم يكن ثمة وسيلة سابقة للتفاهم . ومن الطريف ان نجد العالم اللغوى شتورتيفانت Sturtevant يذهب الى القول بانه لما كانت النوايا والعواطف والانفعالات الحقيقية الصادقة تكشف عن نفسها وتفضح صاحبها بطريقة لا ارادية فى الحركات والنظرات والأصوات ، كان لابد من ان يخترع الانسان بعض وسائل الاتصال الارادية التى يستخدمها ليدارى بها انفعالاته . أى ان اللغة نشأت نتيجة للرغبة فى خداع الآخرين والتمويه عليهم واخفاء النوايا الحقيقة . انظر :

Pei, op. cit. pp. 15—16

ومحاكاتها (١٥) . وعلى اى حال فان هاتين النظريتين لا تقدمان تفسيرا شافيا للصور اللغوية الحقيقية ، لانه لا الصياح اللاارادى ولا محاكاة الاصوات يمكن اعتباره صورة او صيغة لغوية ، وان كان الصياح يؤلف بغير شك جزءا من استجابات الانسان للمؤثرات او المنبهات القوية ، كما انه يختلف حتى عن كتابة هذا الصوت. فكلمة ( آه ) مثلا ترمز الى استجابات الالم والدهشة والتعجب حسب طريقة النطق بها . وهذا الرمز – مثل كل الكلمات – مسألة تعسفية تحكمية وتقوم على الاتفاق ، كما ان معناها يجب ان يتعلمه المتكلمون بعكس حال الصوت نفسه أو الصيحة اللاارادية التى لا يتعلمها الفرد. فالطفل يصرخ قبل ان يتكلم اللغة بفترة طويلة . كذلك الكلمات التى تقلد الاصوات يجب الا نخلطها بالمحاولات التى بذلت لصنع أصوات تميز البيئة التى يعيش فيها الانسان . (١٦)

والامر الذى نستطيع ان نخرج به من كل هذه المناقشة هو اجماع الآراء على أن اللغة قديمة قدم الانسان نفسه وقدم الثقافة او الحضارة الانسانية بمعناها الواسع . (١٧) وليس من شك فى ان أية محاولة لفهم أصل اللغة لن تجدى شيئا الا اذا افلحت فى اكتشاف الطريقة التى تمكن الانسان بها من ان يقيم عادات تعسفية معينة ومتفق عليها للربط بين أصوات الكلام والتجربة ، وهو الامر الذى اخفقت فى تحقيقه كل النظريات التى ذكرناها. ومن هنا يعتقد علماء الانثربولوجيا اللغوية بالذات ان الاجدى فى البحث عن أصل اللغة ان يركز الباحث جهوده على تحليل اللغات الحديثة واللغات البدائية الموجودة الآن بالفعل تحليلا دقيقا ، لان مثل هذا التحليل خليق بان يبين له ان عناصر الكلام (مثل الالفاظ والعبارات والجمل) هي مجرد رموز تسعفية وليست فى ذاتها جزءا من الواقع او التجربة التي يرمز الصوت اليها ، وهذه الرمزية التعسفية التي تتميز بها الالفاظ تشير

---

(١٥) Cassirer, op. cit. p. 152

(١٦) Hoijer, in Shapiro, op. cit., p. 200

( ١٧ ) يحاول بعض العلماء ان يستدل على قدم اللغة عن طريق مقارنة تجربة الجنس البشرى فى اللغة عموما بتجربة الطفل لتعلم اللغة السائدة فى المجتمع ، على اساس ان التجربتين من طبيعة واحدة ، كما ان لهما طابعا اجتماعيا فى المحل الاول وليس طابعا ميتافيزيقيا . فقبل أن يتمكن الطفل من الكلام يكون قد اكتشف وسائل كثيرة للاتصال بالآخرين وهي وسائل بسيطة وساذجة وتلقائية ولكنها تكفي على اى حال للتعبير ، كما هو الحال فى البكاء للتعبير عن الجوع والالم او عدم الشعور بالراحة والخوف . وهذه وسائل تسود فى كل المجتمعات الانسانية بلا استثناء وبغير اختلاف فى كل مكان وزمان ، وان كانت تتخذ عند الكبار اشكالا جديدة ومقصودة . ولا يلبث الطفل أن يلجا الى بعض الاصوات ذات المقاطع المتميزة للتعبير عن بعض حاجاته الاخرى البسيطة وهكذا تدريجيا حتى يتملك ناصية اللغة . وهذا هو ما فعله الانسان البدائي حين نقل هذه التجربة الاجتماعية الاولية الى الطبيعة باسرها ، لان العلاقة بين الطبيعة والمجتمع فى نظره علاقة قوية جدا وتؤلف كلا واحدا متماسكا لا يمكن الفصل فيه بينهما . وليست الطبيعة ذاتها الا مجتمعا كبيرا هو مجتمع الحياة ذاتها. وقد حاول الانسان ان يخضع هذا المجتمع الكبير لصالحه الخاص ، ولجا فى ذلك الى السحر . واتخذت الكلمة بذلك فى نظره قوة اجتماعية وقوة فائقة للطبيعة معا بحيث يستطيع عن طريقها ان يخاطب كل ما فى الكون من قوى مرئية وغير مرئية ، اذ ليست الطبيعة فى نظره شيئا جامدا لا يسمع ولا يعي ولا يتكلم ، وانما هي شيء يفهم ويدرك ، وعلى ذلك فاذا خوطبت بالطريقة الملائمة فسوف تستجيب ولا ترفض النداء ، وبذلك فليس هناك ما لا يستجيب ولا يخضع للسحر . ولكن لم يلبث الانسان ان وجد ان الكلمة السحرية قاصرة عن تحقيق اهدافه وان الطبيعة لا تفهم لغته دائما وبذلك فهي لا تستجيب دائما للنداء ، وبذلك لم تعد للغة كل هذه القوة الهائلة التى كانت لها فى نظره ، ولم يعد لها كل ذلك التاثير الفيزيقي المباشر او الفائق للطبيعة . فهي لا تستطيع ان تغير طبائع الاشياء او تجبر الآلهة والشياطين ، ومع ذلك فانها لم تفقد كل معناها ولم تعد مجرد اصوات بغير معنى ، وكل ما حدث هو أن الخاصية الاساسية فيها لم تعد هي الخاصية الفيزيقية بل الخاصية المنطقية . وهذا تغير لا يستهان به . وكما يقول ارنست كاسيرر فى ذلك : لقد اصبحت الكلمة ( اللوجوس ) هي مبدأ الكون واول مبدأ فى المعرفة الانسانية . ( انظر كتابه : مقال عن الانسان – المرجع السابق ذكره ، بالانجليزية صفحات ١٤٣ ، ١٤٥ ) .

الى الخاصية الاجتماعية للغة . فاللغات ترتبط دائما بجماعات من الناس وليس بفرد واحد معين بالذات ، كما ان الفرد يكتسبها من الجماعة التي يعيش فيها لا العكس . بالاضافة الى انها تستخدم في المحل الاول وسيلة للاتصال والتعاون ، اذ عن طريقها يستطيع الفرد توصيل تجربته الشخصية للاخرين ونقلها اليهم ، كما يشاركهم تجاربهم على ما ذكرنا (١٨) . ومهما يكن من شيء فانه على الرغم من كل ما احرزه الانسان للآن من تقدم ، وبالرغم من كل ما لدينا من أجهزة وعلم ومعرفة . فلا تزال مشكلة أصل اللغة مستغلقة على الافهام . فالانسان الاول لم يترك وراءه اية تسجيلات عن كلامه مثلما فعل بالنسبة لكتابته او نقوشه ورسومه التصويرية . ومن السهل التعرف على اصل الكتابة بدرجة عالية من الدقة . والدراسة العلمية الحقة لاصل اللغة تبدأ ببداية اللغة المكتوبة المسجلة أى انها تكون بالضرورة دراسة او بحثا عن اصل الكتابة وليس اصل اللغة في عمومها (١٩) .

( ٢ )

ولكن هل كان من الضروري ان تكون وسيلة الرمز هي اللغة المنطوقة ( لغة الكلام ) او المكتوبة ؟ الا يمكن ان تكون هناك طريقة اخرى للتعبير عن الافكار والمشاعر وبذلك تكون اللغة مسبوقة بوسائل واساليب للتعبير غير لغوية ؟

لاشك ان الانسان قد تمكن خلال تاريخه الطويل من ان يخترع وسائل كثيرة ومتنوعة للاتصال غير اللغوى مثل الاشارات والايماءات والحركات المختلفة ، وهي مشكلة على جانب كبير من التعقيد . ويذهب الكثيرون الى انها اسبق في الظهور على لغة الكلام ، ويقال انه يمكن عمل ما لا يقل عن سبعمائة الف حركة اولية متميزة عن طريق التغييرات الوجهية واوضاع الذراعين والاصابع والرسغين وما الى ذلك ، وهذه الرموز الحركية تكفى لان تزودنا بما نجده في احدى اللغات الحديثة من رموز . (٢٠) ويذهب العلماء التطوريون بالذات الى ان اختراع لغة تعتمد على الاشارات امر أسهل بكثير من اختراع لغة تعتمد على الاصوات . ونظرا لامكان البراعة فيها بسهولة فان ثمة احتمالا بانها كانت اسبق على لغة الكلام المفصل ذى المقاطع ، ومن هنا نجد رجلا مثل العالم الانثربولوجي الامريكي لويس مورجان Lewis Morgan يقول ان الاصوات جاءت أولا كمعاونة للاشارات والايماءات والحركات ، ثم اخذت تكتسب بالتدريج معنى متعارفا عليه بحيث أصبح لها السيطرة والسيادة والغلبة على لغة الاشارات ، او على الاقل اصبحت جزءا هاما منها . ورغم كل ما احرزه الانسان من تقدم في هذا الصدد فلا تزال اللغتان ( لغة الاشارة ولغة الكلام) غير منفصلتين . ولو كانت اللغة بمعناها الدقيق كاملة لكان استخدام الاشارة والحركة امرا مصيبا ، وكلما نزلنا في سلم التدرج اللغوى الى الصور الدنيا للغة وجدنا عنصر الاشارة يزداد وضوحا ليس فقط من حيث العدد او الكم بل وايضا من حيث تنوع الاشارات ، الى ان نصل

(١٨) Hoijer, in Shapiro, op. cit. p. 20 .

(١٩) Pei, op. cit. p. 20.

(٢٠) Ibid, p. 11

الى اللغات التي تعتمد على الاشارات لدرجة يصعب معها فهم ما يقال ان لم يكن مصحوبا بالاشارات والحركات والايماءات المناسبة . (٢١)

وتتفاوت الشعوب فى اعتمادها على الاشارات والايماء تفاوتا كبيرا ، (٢٢) وان كان الشائع ان بعض الشعوب البدائية مثل الهنود الحمر فى امريكا يعتمدون على الاشارات فى بعض المواقف اعتمادا يغنيهم تماما عن اللغة ، وذلك على الرغم من انهم حين يتكلمون لا يكادون يأتون بأى ايماءة من اى جزء من اجسامهم . والمعروف ان التخاطب بالاشارات قديم على اى حال مثل الاشارات التى توجد لدى عدد من الشعوب البدائية ، كما كانت معروفة عند الاغريق بحيث ان اخبار حرب طروادة والانتصار فيها انتقلت من آسيا الصغرى الى اليونان عن طريق سلسلة من هذه الاشارات . ومنذ ذلك الحين اتخذت اشارات النار بمثابة « لغة » للتخاطب عن بعد ، والمعتقد انها هي التى ادت الى خلق الاشارات الضوئية التى تعتمد على انعكاس اشعة الشمس من مرايا على فترات معينة بطريقة دقيقة مدروسة . ويدخل فى هذا النوع من التخاطب « لغة » الطبول التى تستخدم فى كثير من انحاء افريقيا كما يدخل فيها ايضا الاشارات بالدخان التى يستعملها الهنود الحمر . وقد تتخذ بعض صور الاتصال غير اللفوى شكلا قريبا من الكلام ، مثل الاصوات التى يصدرها الانسان للتعجب او الاستنكار التى يصاحبها ايماءات من الراس مثلا للدلالة على النفى أو الابحاث ، ومثل الصفير للاستهجان أو الاستحسان باختلاف المجتمعات ، بل انه يوجد فى بعض المجتمعات البدائية نوع من الصفير يستخدم للاتصال على مسافات بعيدة كما هو الحال فى جزر الكانارى Canary Islands حيث تجد نوعا من الصفير المنتظم المدروس الذى يرتكز على بعض الانغام الاسبانية ( ٢٣ ) والاكثر

---

( ٢١ ) Morgan, Lewis H.; Ancient Society, (N.D.); p. 35, n.I.

ويبدو ان هذا الاتجاه نفسه كان شائعا لدى بعض الكتاب الاقدمين . فقد لاحظ لوكريتيوس Lucretius على مايقول مورجان نفسه . ان الناس فى الحقبة البدائية امكنهم عن طريق الاصوات والحركات والاشارات ان ينقلوا افكارهم بشيء من التعثر بعضهم لبعض . وذهب فى ذلك الى ان الفكر سبق الكلام وان لغة الاشارات سبقت لغة الكلام ذى المقاطع المتميزة . فلغة الاشارات والحركات تبدو فى نظره لغة بدائية وانها هي الاخت الكبرى للكلام المفصل ، كما انها لا تزال هي اللغة العامة لدى الشعوب المتبربرة ، وكذلك عند الشعوب الهمجية فى حديثهم حين تختلف لهجاتهم (Loc.qit.)

( ٢٢ ) مثال ذلك ، على ما يقول الاستاذ آشلي مونتاجيو ، ان يهود جنوب شرق اوروبا والايطاليين يستخدمون الايماء وحركات الجسم كلغة اضافية ويعتمدون عليها اعتمادا كبير فى التعبير عما يريدون قوله بينما لا تكاد شعوب اخرى تستخدمها على الاطلاق كما هو الحال عند هنود امريكا او الانجليز الذين يعرفون بالميل الى الاقتضاب وقلة الافصاح . وقد توجد لدى بعض هنود السهول مجموعة محدودة من الايماءات يستطيعون استخدامها فى الاتصال بغيرهم . ولكن ليس ثمة ما يدل - على حد قول مونتاجيو - على ان لغة الانسان كانت مسبوقة بمرحلة استخدمت فيها الايماءات كوسيلة للاتصال بين الناس ( انظر فى ذلك : آشلي مونتاجيو : المليون سنة الاولى من عمر الانسان : ترجمة رمسيس لطفي ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ١٩٦٥ ، صفحة ١٢٧ ) .

( ٢٣ ) Pei, op. cit.; pp. 8–10 - توجد لغة الصفير - ايضا عند بعض القبائل الاصلية فى المكسيك وهي تقوم فى الاصل على اربعة انغام مختلفة . ويحتمل ان تكون قبائل ماقبل التاريخ التى كانت تعتمد كلية على قنص الحيوان كانت تستخدم الصفير كوسيلة للاتصال ، كما انه يمكن الآن تدريب الاطفال فى بعض القبائل على ممارسة الصيد والقنص باستعمال الصفير دون الكلام كوسيلة ، واداة للتفاهم كما يحدث فعلا عند قبيلة سيريونو Siriono فى بوليفيا اذ يعتمدون على الصفير اثناء القنص ولا يتكلمون الا قليلا جدا بحيث ان بعض الرحالة القدامي اعتقدوا انهم يفتقرون الى وجود لغة يتفاهمون بها . انظر فى ذلك :

Hymes, Dell H; "A Perspective for Linguistic Anthropology" in Sol Tax (ed): Horizons of Anthropology, Aldine, Chicago 1964, pp. 103—104.

من ذلك ان بعض اشكال الاتصال غير اللغوى تقترب من اللغة المكتوبة اقترابا شديدا ، بحيث يعتقد بعض الكتاب انها مهدت الطريق لظهور الكتابة ، مثل الرسوم والنقوش التصويرية التى سبقت الاشارة اليها والتي نجدها لدى الجماعات البدائية التي لا يمكن التشكك فى قدرتها على الكلام ، او الحبال التى يصنع فيها بعض العقد بأشكال مختلفة وغير ذلك من الوسائل والاساليب التى تشيع ليس فقط بين الشعوب البدائية كالهنود الحمر فى أمريكا وبعض قبائل غرب استراليا وسكان استراليا الاصليين بل وأيضا لدى بعض الشعوب التى بلغت درجة عالية من الحضارة مثل الصين القديمة . ويبدو ان هذه « اللغات » كانت تصل أحيانا الى درجة عالية من التعقيد . فعند الانكا Inca مثلا فى بيرو نجد ان نظام التخاطب باستخدام العقد التى تصنع فى الحبال كان يعتمد على حبال مختلفة الالوان بحيث يكون لكل لون ولكل عقدة معنى معين بالذات . فالحبال الحمراء ترمز الى الجنود ، والصفراء للذهب ، والبيضاء للفضة وهكذا . كما كانت عندهم عقدة واحدة تعقد بطريقة معينة لكي تشير للرقم ١٠ ، وعقدتان للرقم ٢٠ وعقدة مزدوجة للرقم ١٠٠ وهكذا . وكان يشرف على ذلك النظام المعقد موظفون متخصصون يعرفون باسم «خازني العقد» ، وكانوا هم الذين يتولون حل رموزها . (٢٤)



ومهما يكن من أمر هذه الوسائل غير اللغوية للاتصال ، ومهما يكن من أمر بساطتها . فليس ثمة ما يدل على انها كانت أسبق فى الظهور على اللغة . وهذا يصدق بوجه خاص على لغة الاشارات . فقد يكون التخاطب عن طريق الايماءات وحركات الجسم البسيطة اسبق من التخاطب اللغوى عن طريق الكلام ، ولكن الاتصال عن طريق الاشارات والعلامات ، سواء اكانت الوسيلة لذلك هي النار أو الدخان أو العقد التى تصنع فى الحبال أو الحزوز التى تقطع فى العصى والاخشاب ، لا يمكن استخدامها الا بعد الاتفاق على معناها بدقة ، وهذا الاتفاق نفسه يفترض وجود لغة للتفاهم ، وعلى العموم فان من الصعب اعتبار كل هذه الاساليب لغة بالمعني الدقيق ، كما انه يصعب تصور انها يمكن أن تحل محل اللغة الكلامية . فمهما تعددت هذه الاشارات والحركات والايماءات ، فانها تظل قاصرة عن التعبير عن كبير من الامور ، وبذلك فانه لا يمكن استخدامها أو الاعتماد عليها فى الاغلب الا كوسيلة ثانوية للاتصال ، أو كوسيلة مكملة للغة الكلام العادية وبخاصة حين يصعب الاتصال والتخاطب بالطريقة العادية عن طريق الكلام . (٢٥) ومن الطريف ان نجد داروين يفسر لنا عدم نجاح الاشارات فى أن تصبح ـ رغم بساطتها ـ هي اللغة العامة السائدة عند البشر بدلا من لغة الكلام الصعبة المعقدة ، بأن الكلام هو وسيلة الاتصال والتفاهم الوحيدة التى يمكن استخدامها دون أن يؤدى ذلك الى تعطيل اى عضو من اعضاء جسمه يحتاجه فى عملية الانتاج والعمل ، بعكس الحال فى لغة الاشارات التى تتطلب عدم استعمال الأيدي فى اى عمل آخر اثناء تبادل الحديث نظرا لانشغالها فى عملية التخاطب مما يعطل هذه الاجزاء الحيوية من الجسم عن تأدية وظيفتها . كذلك يذكر داروين فى

(٢٤) Pei, op. cit. pp. 10—11

(٢٥) Beals and Hoijer, op. cit., p. 574

هذه الصدد ان لغة الكلام تعنى امكان الاتصـال بسهولة عن طريق الاصوات المتميزة فى الظـلام وعبر الحواجز والعوائق وهي أمور لا تتيسر فى حالة التخاطب بالاشارات . وعلى ذلك فان اللغة بمعناها الدقيق تظل فى راى العلماء هي الاداة الرئيسية خلال كل مراحل التاريخ والتطـور للاتصال والتفاهم وتبادل الافكار وبالتالي اداة الثقافة والحضارة .

(٣)

والذى يهمنا من هذا كله ليس هو تاريـخ اللغة أو اصلها فى حد ذاته بل هو ارتباط اللغة بالانسان دون غيره من الكائنات العضوية الحية حتى تلك التى للانسان صلة قوية بها كالقردة العليا ، ثم ارتباط اللغة بالثقافة أو الحضارة على اعتبار ان الحضارة الانسانية ــ التى تميز الانسان عن غيره من الكائنات ــ لم تكن لتقوم لولا وجـود اللغة التى تعتبر هي أيضا من أهم خصائص الانسان بل وعاملا فاصلا فى التمييز بينه وبين غيره مـن الكائنات . فاللغة اداة هامة من أدوات الحضارة وعامل أساسي فى نشأتها واستمرارها وتطورها .

ولو اخذنا الحضارة ــ او الثقافة كما يفضل الانثربولوجيون تسميتها ــ على انها هي حصيلة النشاط البشرى خلال تاريخه الطويل ، والتي تتمثل فيما انتجه عقل الانسان الخالق المبدع من فنون وآداب ، وآلات وادوات وصناعات ، واخلاق وعادات وقيم ، وفيما حققه من مهارات فى كل هذه الميادين ، لظهر لنا ان الخاصية الرئيسية التى تميز الحضارة هي خاصية الاستمرار والقـدرة على الانتقال من جيل لآخر ، بحيث يأخذ كل جيل عمن سبقوه ويضيف الى ما أخذه منهم ثم ينقلها بعد ذلك للاجيال التى تأتي بعده . فخاصية التراكم اذن هي التى تجعل هناك فارقا اساسيا بـين الحضارة الانسانية ومختلف أنواع النشاط التى نصادفها عند الجماعات الحيوانية الاخرى ، وأداة هذا التراكم هي ــ كما قلنا ــ اللغة . والـذى يمنع الحيوانات والقردة العليا من ان تكون لها حضارة هو فى المحل الاول افتقارها الى اللغـة وبالتالي عدم وجود قدرة كلامية وفكرية تساعدها على مواصلة تجاربها وخبراتها . فما يكتسبـه القرد مثلا من « معرفة » فى حل مشكلة ما يظل خبرة استقرارية راكدة مقصورة عليه هو وحده . وقد يتذكرها حين يصادف نفسه أزاء مشـكلة مشابهة أو موقف مماثل ، ولكنه فى الفترات التى تتخلل ذلك لا يعكف على التفكير فى تلك الخبرة او التجربة بقصد تحسينها أو استخلاص اية نتائج منها للاستفادة منها فى حل المشاكل الاخرى ، مثلما يفعل الانسان الذى يناقش فى العادة المشكلة عن طريق اللغة ويفكر فيها بعد انتهائها ليرى ما اذا كانت هناك تطبيقات اخرى ممكنة لتلك المعرفة . فعن طريق اللغة والتفكير تكون خبرات الانســان وتجاربه مستمرة ومتصلة وهذا يساعد بالتالـي على تطويرها وتنميتها . ولقد سبق ان ذكرنا ان وجود اللغة يساعد الانسان على أن يشارك الآخرين خبراتهم وافكارهم مثلما ينقل اليهم هو خبراته وأفكاره ، وذلك بعكس الحال عند القردة العليا التى تعجز عن نقل خبراتها بعضها لبعض ، على الاقل بنفس الطريقة وعلى نفس المستوى من التفكـير المجرد الذى نجده فى الجماعات الانسانية . ومن هنا كانت الميزة الكبرى التى يتميز بها الانســان وهي القدرة على نقل تلك الخبرات التي تؤلف فى

آخر الامر التراث الحضارى أو الثقافي من جيل لآخر عبر الزمن . (٢٦) فاللغة كغيرها من مظاهر الثقافة تتميز بخاصية التراكم والاستمرار والنمو والقدرة على الانتقال ، والاكثر من هذا كله فانها هي ذلك الجزء من الثقافة او الحضارة الذي يساعد اكثر من غيره على التعلم وزيادة الخبرة والمشاركة فى خبرات الآخرين ، سواء الخبرات الماضية أو الحالية . اى انها العامل الاساسي فى عملية التراكم التى هي اهم عنصر فى الحضارة الانسانية . وليس من شك فى انه فى الوقت الذى بدا الانسان فى اختراع ابسط الادوات والآلات نتيجة لتطور مهاراته اليدوية بدا يدرك العلاقة بين الاشياء ويصنفها ويرى وسائل تغييرها ، كما كانت عنده الوسيلة لنقل هذه الافكار الجديدة لغيره واشراكهم فيها وهذه الوسيلة هي اللغة . فانتقال الخبرات التى تؤلف التراث الحضارى هو عملية شعورية ومتعمدة بل وهادفة ، كما ان اى نشاط يقوم به الانسان لا بد من ان يكون عنده ما يقابله من تصورات وأفكار والفاظ تكفى للتعبير عنه . وكما يقول ريتشى كولدر Ritchie Calder فى ذلك « ان صانع الآلات هو فى الوقت ذاته صانع كلمات » ، وهذا يصدق على الماضي مثلما يصدق على الحاضر . فالتطور الثقافي البطيء الذى تم فى العصر الحجرى القديم ( الباليوليثي ) الادنى مثلا كان مرتبطا بالتاكيد بلغة أولية بسيطة تلائم الصناعات الحجرية الفجة البسيطة التى كان الانسان يقوم بصنعها ، مثل فأس اليد الحجرية التى كانت تستخدمها الجماعات الصغيرة المتناثرة التى يرتبط وجودها بتلك الحقبة التاريخية والحضارية ، فلما كبرت الجماعات الانسانية فى العدد احتاج الامر الى تحسين الادوات والآلات وتهذيبها مثلما احتاج الى ظهور لغة أكثر تعقدا من حيث مفرداتها والتصورات والافكار التي تعبر عنها هذه المفردات ، حتى يمكن عن طريقها تبادل الخبرات والمهارات اللازمة فى انتاج وصنع ادوات اكثر تقدما وهكذا . وليس من شك أيضا فى ان تقدم الفنون عند الانسان المبكر ثم عند الانسان الحديث أو الانسان العاقل بعد ذلك كان نتيجة لتطور اللغة أو الالفاظ والكلمات التى يمكن بواسطتها شرح الامور وتعليمها للآخرين . (٢٧)

ولقد درج العلماء ــ وحتى عهد قريب ــ فى دراستهم للعلاقة بين اللغة والثقافة على الاكتفاء بتبيين العلاقة الخارجية الواضحة بين مفردات اللغة ومحتوى الثقافة ، كما كانوا يحرصون على أن يبينوا ان هذه المفردات تعكس الى حد كبير اهتمامات المجتمع والجوانب التي يركز عليها والتي تشغل بال أعضائه مثل التكنولوجيا او التنظيم الاجتماعي او الدين او الروابط القرابية وما الى ذلك من المسائل التي تحتل مكانا مركزيا فى بناء المجتمع وتدور حوله بالتالي أوجه النشاط الاجتماعي المختلفة . فالشعوب التي تعيش على الجمع والقنص مثلا توجد عندها قوائم تفصيلية طويلة بأسماء الحيوانات والنباتات والملامح الطبوغرافية للبيئة التي يعيشون فيها ، بينما نجد الجماعات التي تهتم بالقرابة مثل الاستراليين الاصليين عندهم كثير من مصطلحات القرابة المعقدة التي تعكس فى مجموعها العلاقات القرابية المتشابكة التي يدخل فيها أعضاء القبيلة الواحدة من ناحية والقبائل والعشائر المختلفة بعضهم مع بعض من الناحية الاخرى . وكل هذا يوضح ان

(٢٦) Hoijer, in Shapiro, op. cit., pp. 197—98, Id, "The Relation of Language to Culture" in Kroeber, (ed.): Athropology Today, Chacago U.P. 1953, p. 556.

(٢٧) Calder, R.; After the Seventh Day: The World Man Created; Mentor Books, N.Y. 1962, pp. 49—52; Childe, op. cit., p. 29.

ثمة صلة قوية بين مفردات اللغة وكثير من جوانب الثقافة غير اللغوية . (٢٨) ولكن الشيء الذى لم يهتم به معظم هؤلاء العلماء اهتماما كبيرا على الاقل هو ان اللغة قد تتدخل فى تحديد وتركيب انماط الفكر فى المجتمع الذى تسود فيه سواء أدرك الناس ذلك أم لم يدركوه . فكما ان الفنان وعالم النبات قد ينظران الى الاشجار والنباتات والزهور من ناحيتين مختلفتين كذلك الحال بالنسبة للجماعات التي تتكلم لغات مختلفة تنظر الى العالم نظرات مختلفة وتدركه بطرق مختلفة أيضا . (٢٩) وهذا معناه ان الاكتفاء بدراسة العلاقة الواضحة بين اللغة والمحتوى الثقافي لاتعني شيئا اكثر من ان اللغة لها اساس ثقافي او حضارى وانه لن يمكن بالتالي تحديد مفردات اللغة تحديدا دقيقا الا بمعرفة بقية مظاهر الثقافة . وهذا هو ما يقصده علماء الانثروبولوجيا والاجتماع حين يذكرون ان اللغة شيء اكبر مما نجده فى القواميس والمعاجم وان دراستها دراسة عميقة تحتاج الى التعرف على الروابط اللغوية بين انماط اللغة وانماط الثقافة والحضارة . ولكن الجديد فى الامر هو ما يحاوله الآن بعض العلماء من اثبات ان الشعوب التي تتكلم لغات مختلفة تعيش فى « عوالم من الواقع » مختلفة ، وان اللغات التي يتكلمونها تؤثر بدرجة كبيرة فى مدركاتهم الحسية وفى انماط

---

(٢٨) من ذلك مثلا ما يذكره هامر بورجشتال Hammer — Purgstall فى احدى مقالاته من ان هناك حوالي خمسة آلاف الى ستة آلاف اسم لوصف الابل عند العرب ، وهي الفاظ تعطى الكثير من التفاصيل عن الشكل والحجم واللون والسن وطريقة السير وما الى ذلك . ويلاحظ هامر بورجشتال ان هذه التصنيفات ابعد ما تكون عن التصنيف العلمي أو المنهجي ، ولكنها تخدم مع ذلك اهدافا واضحة ومهمة للمجتمع البدوى العربي . وفى كثير من لغات الهنود الحمر توجد اسماء والفاظ كثيرة ومختلفة عن فعل واحد معين مثل المشي او الضرب ولكنها كلها توضع واحدة بجانب الاخرى وبحيث لا يمكن ان تحل كلمة محل غيرها . فالضرب بالكف غير الضرب بقبضة اليد غير الضرب بسلاح أو بسوط أو بقضيب وما الى ذلك . كذلك نجد عند بعض الهنود الحمر فى وسط البرازيل — على ما يقول شتاينن Karl von den Steinen ان لكل نوع من الببغاوات واشجار النخيل اسما خاصا به ولكن لا يوجد اسم جنس للببغاء أو النخل . فهم يهتمون بالتفاصيل بحيث لم يعودوا يهتمون بالخصائص المشتركة بينها جميعا . وعلى اى حال فان التصنيفات والتقسيمات تمليها على الناس الحاجات الخاصة التى تختلف باختلاف الظروف الاجتماعية والثقافية . ففي الحضارات البدائية على العموم ينصرف معظم الاهتمام الى النواحي المادية الملموسة والمشخصة والجزئية . وليس من شك فى ان اللغة والكلام يتوامعان دائما مع أشكال الحياة الانسانية . والاهتمام بالكليات امر غير ميسور وغير ضرورى بالنسبة للقبيلة الهندية لانه يكفيها ان تميز بين الاشياء عن طريق الخصائص الواضحة الملموسة والظاهرة للعيان ، بل ان ذلك اكثر اهمية بالنسبة لها . وفى كثير من اللغات لا يمكن معاملة الشيء المستدير مثلما يعامل الشيء المربع او المستطيل او البيضاوى لانها كلها تنتمي الى انواع مختلفة تتميز بوسائل لغوية خاصة . وفى كثير من اللغات توجد كلمات لكل درجات اللون الواحد بينما لا يوجد اسم عام لذلك اللون كالازرق اوالاخضر فى عمومه وما الى ذلك . بل ان هذا نفسه ينطبق حتى على الاعداد حيث تستخدم اعداد مختلفة بالنسبة لكل نوع من انواع الاشياء . وعلى ذلك فان الوصول الى الافكار والمقولات الكلية يبدو انه تم بطريقة بطيئة جدا اثناء تطور اللغة والكلام . وليس من شك فى ان كل تقدم فى هذا المجال يؤدى — على ما يقول كاسيرر — الى توجيه افضل وتنظيم احسن لعالمنا المدرك . انظر فى ذلك Cassirer, op. cit., pp. 174-76

ومن افضل الامثلة على اهتمام الشعوب البسيطة بالجزئيات دون الكليات وبالتفرقة الدقيقة بين الاشياء التي من نوع واحد على اساس الاختلافات الظاهرية بين صفاتها ما يذكره عالم الانثروبولوجيا البريطاني ايفانز بريتشارد عن التمييزات الدقيقة الكثيرة التى يقيمها النوير فى السودان الجنوبي بين الماشية ( الابقار ) على اساس اللون والسن وشكل القرون وما الى ذلك . انظر Evans — Pritchord, E.E.; The Nuer, Oxfor University Press, 1940.

وراجع فى ذلك على العموم Hoijer, " The Relation of Language to Culture" in Kroeber, op. cit., pp. 556—7

(٢٩) Peacock, J.L. & Kirsch, A.T.; The Human Direction, Appleton-Century-Crofts, N.Y. 1970, p. 16.

تفكيرهم ، وانها بذلك وحسب تعبير سابير Sapir ــ تكون هي العامل الاساسي في توجيه الحقيقة الاجتماعية او الواقع الاجتماعي Social Reality الذى يعيش فيه الناس الذين يتكلمون تلك اللغات . فالناس لايعيشون في العالم الموضوعي الخارجي وحده كما انهم لايعيشون في عالم النشاط الاجتماعي فقط كما يظن الكثيرون من العلماء وانما هم خاضعون الى حد كبير لرحمة اللغة التي يتخذونها اداة وواسطة للتعبير . « فعالم الواقع او الحقيقة يرتكز الى حد كبير بطريقة لاشعورية على العادات اللغوية للجماعة ولا توجد لغتان متشابهتان تشابها كافيا بحيث تعتبران ممثلتين لنفس الحقيقة او الواقع الاجتماعي . فالعوالم التي تعيش فيها المجتمعات المختلفة عوالم متمايزة اذن وليست عالما واحدا الصقت عليه أسماء وعناوين مختلفة » (٣٠)

ولقد تأثر بنيامين فورف Benjamin L. Whorf بهذا الاتجاه الذى ظهر واضحا في كتابات عدد من العلماء المعاصرين له او السالفين عليه ولكنه كان هو الذى عمل على تطوير هذا الاتجاه واسهم فيه اكثر من غيره لدرجة انه ارتبط باسمه ارتباطا وثيقا . وعلى ما يقول فورف نفسه في ذلك فاننا نقوم بتقسيم الطبيعة حسب خطوط معينة رسمتها لنا لغاتنا . وهذه الفئات والانماط التي نفصلها من عالم الظواهر لايتم العثور عليها لانها تواجهنا او لانها امور واضحة امام اعيننا وانما الامر على العكس من ذلك تماما ، بمعنى أن العالم الخارجي او الواقعي هو مزيج من العناصر والعلاقات والظواهر المختلفة المتباينة الى ابعد حدود التباين وأن العقول الانسانية هي التي تتدخل لتكشف عما فيه من تنظيم ، ووسيلتها الى ذلك هي الانساق اللغوية التي توجد في تلك العقول الانسانية ذاتها . فنحن الذين نقوم بتقسيم الطبيعة وتجزئتها وتنظيمها في شكل مفهومات وتصورات ونعطيها بذلك أو اثناء ذلك معاني محددة تحديدا دقيقا . (٣١) ويعطينا فورف أمثلة عديدة تبين لنا بدقة كيف أن اللغة تتدخل لتقسيم الواقع الاجتماعي بعدة طرق واساليب مختلفة ويظهر ذلك على الخصوص حين نقارن نسقا معينا بالذات من الانساق الاجتماعية لنرى الدور الذى تقوم به اللغة في « تقسيم » الطبيعة وكيف تنظر الجماعات التي تتكلم لغات مختلفة الى الشيء الواحد نظرات مختلفة وتتصوره ايضا بطرق واساليب مختلفة . . وأفضل مثل لذلك هو الاختلافات الواضحة في استخدام مصطلحات القرابة مثل كلمة أب وأم وأخ واخت وما اليها في المجتمعات المختلفة ، فهذه الكلمات تستخدم بطرق متباينة الى ابعد حدود التباين بحيث يشك المرء فيما اذا كانت لها نفس المعاني في الثقافات والمجتمعات التي لا يسود فيها نفس النوع من النسق القرابى . فالمفروض ان هذه المصطلحات تشير الى نسق معين بالذات من العلاقات البيولوجية التي يشترك فيها جميع البشر على اختلاف ثقافاتهم وحضاراتهم ، ومع ذلك فاننا نجد في مجتمعاتنا مثلا ان كلمة اب او ام تطلق على اشخاص معينين بالذات تربطهم بنا روابط بيولوجية واجتماعية معينة تفرض علينا حقوقا وواجبات محددة ازاءهم ــ بينما تستخدم هذه الالفاظ ذاتها في مجتمعات أخرى لاشخاص لايرتبطون بأية روابط بيولوجية بالشخص الذى يناديهم بتلك الالفاظ والمصطلحات . فكلمة اب تطلق على اخوة الاب وأبناء عمومته من الدرجة الثالثة او الرابعة في بعض المجتمعات ، بل انها قد تطلق على جميع الرجال الذين ينتمون الى طبقة العمر التي ينتمي اليها الاب الحقيقي او الوالد . ولا تستخدم الكلمة لكل هذه الفئة الكبيرة من الناس على سبيل المجاملة او الاحترام وانما هي

---

(٣٠) Sapir, Language, op. cit. 162 وانظر كذلك مقال هويجر عن « علاقة اللغة بالثقافة » في كتاب كروبير Anthropology Today ( المرجع السابق ذكره ، صفحة ٥٥٧ )

(٣١) Whorf, B.L.; "Science and Linguistics", The Technology Review, Vol. 42, 1940, p. 231, (according to Beals and Hoijer, op. cit., p. 587).

تستلزم قيام علاقات اجتماعية معينة بين الشخص وجماعة الناس الذين يطلق عليهم اسم أب بحيث تفرض عليهم ازاءه واجبات معينة تتمثل في المشاركة في تربيته ورعايته وتوجيهه أثناء الطفولة والاسهام في دفع مهر عروسه حين يقبل على الزواج والاسهام في دفع الدية اذا ارتكب جريمة ثأر ، وهكذا (٣٢) .

ويحاول فورف ان يلقى مزيدا من الضوء على آرائه بان يقارن بين ضمير المخاطب في اللغات المختلفة لكي يبين اختلاف الانماط اللغوية والثقافية في المجتمعات المختلفة . فبينما نجد في الفرنسية ــ على مايقول ــ نوعين من الضمير للمخاطب همــا vous, tu نجد في الانجليزية ــ أو على الاصح الانجليزية الحديثة ــ لفظا واحدا فقط هو you ، كذلك يلاحظ ان قبائل النافاهو الذين يسترشد بهم فورف كثيرا لتعزيز نظريته لايعرفون ضمــير الغائب بالمعنى السائد في اللغات الاوروبية الحديثة ، وانما عندهم بدلا من ذلك أربع فئات من الضمائر يستخدمونها للاشخاص الغائبين تبعا للعلاقــات الاجتماعية التي تربطهم بهم ( وليس تبعا لطبيعة الشخص الغائب من مذكر او انثى او مفرد او جمع ) وهذه الفئات الاربعة التي يميز بينها النافاهو هي : ( ١ ) الاشخاص القريبون سيكولوجيا من المتكلم او الذين يفضلهم على غيرهم وينزلون منه منزلة خاصة ، (٢) الاشخاص البعيدون سيكولوجيا مثل غير النافاهويين او الاقرباء الذين يعاملون بطريقة رسمية ، ( ٣ ) الشخص الغائب غير المحدد او غير المعروفة شخصيته او عمله ، و ( ٤ ) الغائب الذي يشار اليه بالنسبة لمكان معين او زمان معين او حالة معينة بالذات (٣٣) .

وهذا معناه ان الانماط اللغوية ليس عملها هو تحديد المدركات الحسية والتفكير ولكن عملها هو توجيه الادراك والتفكير في اتجاهات معينــة مالوفة مستعينة في ذلك بالانماط الثقافية الاخرى . فالاسكيمو الذين يميزون بين انواع عديدة مــن الثلج والذين يفتقرون الى كلمة واحدة عامة تشير الى « الثلج » في ذاته انما يستجيبون لمركب كلي من الانماط الثقافية يتطلب منهم ان يميزوا بين الثلج في حالاته المختلفة ، فهم ليسوا في حاجــة الى كلمة واحدة عامة او كلية ، انما « الشيء الذي هم في حاجة اليه فعلا هو عدة كلمات تشير الى الحالات والظروف المختلفة التي يكون عليها الثلج : الثلج الصلد ، والثلج اثناء انصهاره ، والثلج في حركته ، والثلج في تهشمه ، والثلج في تراكمه ، وهكذا . فلغتهم اذن تعكس الاستخدامات العملية التي تستخدم فيها . وهناك الكثير من الشعوب غير المتحضرة ممن يسكنون مناطق تكسوها الغابات وليس لديهم كلمة مناظرة لكلمة شجرة . . . وفي هذه الحالة أيضــا تعكس اللغة الاحتياجات العملية ، اذ ان هنــاك اسماء لكل نوع من انواع الاشجار ولكل حالة مــن

---

( ٣٢ ) تعرف هذه المصــطلحات القرابية باســم المصطلحات التصنيفية لانها تصنف افراد المجتمع كلهم في فئات تقف كل منها من الاخرى كجماعة موقفا معينا يشبه المواقف القرابية التي يقفها الاشخاص الذين تقوم بينهم روابط قرابة بالفعل وبذلك يقسم المجتمع كله الى آباء وابناء واخوة واخوات وامهات بعضهم لبعض كما يتمثل على الخصوص في مجتمعات شرق افريقيا . كذلك تبدو الاختلافات في استخدام مصطلحات القرابة في المجتمعات المختلفة حين تقارن بين كلمة uncle المستخدمة في اللغات الاوروبية ومقابلها في الثقافات الاخرى . ففي الثقافة الاوروبية يعتبر الشخص اخوة أبيه وامه على نفس الدرجة من القرابة ، ولذا يطلق عليهم جميعا كلمة uncle بينما يقيم الناس في الثقافات الاخرى تفرقة واضحة بين اخوة الاب ( الاعمام ) واخوة الام ( الاخوال ) ، وهذه التسميات تتماشى منطقيا مع طريقة معينة للتفكير والنظر الى الاقارب والقرابة بحيث تظهر التســمية الاوروبية غريبة وشاذة . انظر في ذلك

Beattie, J.; Other Cultures, Free Press,N.Y. 1964; p. 75.

Hoijer, "The Relation of Language to Culture" in Kroeber, op.cit., pp. 559-60. ( ٣٣ )

حالاتها ». (٢٤) اى ان التمييزات التي يقيمها مجتمع من المجتمعات فى انماطه اللغوية وبالتالي فى انماطه الثقافية ترتكز على مدى أهمية تلك الفئات التي يميز بينها بالنسبة لوجوده الفيزيقي . فالمسألة تبدو كما لو كانت اللغة تختار من البيئة العامة بعض الملامح ذات الاهمية الخاصة ، وهي بذلك تعطى لهذه البيئة نوعا من التنظيم او البناء الخاص بتلك الجماعة بالذات .

وتختلف طرائق واساليب التفكير فى المجتمعات المختلفة من حيث انواع الرموز (٢٥) التي يستخدمها

(٢٤) انظر فى ذلك : اشلي مونتاجيو ، المرجع السابق ذكره ، صفحة ١٢٥ . يعتقد مونتاجيو ان هذه التمييزات التي تقيمها اللغة بين الاشياء هي دليل على الدقة فى النظر الى تلك الاشياء وعلى وضوح المعاني وتحديدها تحديدا شديدا فى اذهان الناس ، ويرى فى ذلك انه بالنسبة « لمعظم هنود امريكا تبدو عبارة : ان كلبا ينبح ، على درجة كبيرة من السخف . فالذي يريد الهندى الامريكي ان يعرفه هو : اى كلب ، والى من ينتمي ، واين هو ، وهل هو واقف ام هو يجري ام يقفز أم ماذا . ويستطيع الهندى الامريكي ـ مستخدما لغته هو ـ ان يقول هذه الاشياء جميعا فى بضعة اصوات لا تزيد عن تلك التي ننطقها نحن حين نقرر ان كلبا ينبح . فمن المهم بالنسبة للهندى ان يحصل على المعلومات التي يريدها ، ومن المحال ان يخطر بباله ان يكون على ما نحن عليه من عدم الدقة عندما نشير الى كلب ينبح » ( المرجع السابق ذكره صفحة ١٢٦ ) ويبدو ان للشعوب غير المتحضرة قدرة فائقة على ذكر عدد كبير جدا من الاشياء فى عدد قليل جدا من الكلمات بعكس الحال فى المجتمعات المتحضرة .

ويرجع معظم الفضل فى دراسة هذه المسائل الى علماء الانثربولوجيا الامريكيين الذين يعتبرون دراسة اللغة فرعا هاما من الانثربولوجيا الثقافية . وجاء هذا الاهتمام نتيجة لتركيزهم على دراسة الهنود الحمر والرغبة فى تفهم خصائص ثقافتهم ، خاصة وان بعض القبائل كان لها ماض عريق بل وامبراطورى ، وحضارات قديمة ، وكان من الضرورى لفهم هذه الحضارات من دراسة اللغة والعلاقة بينها وبين بقية مظاهر الثقافة ، وكان من نتيجة ربط الدراسات الانثربولوجية واللغوية معا ان ظهرت فروع جديدة للتخصص تحت عناوين : Linguistic Erhnodogy, Ethnological Pilology ثم ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية تسميات اخرى مثل Anthropological Linguistics او Ethnolinguistics او Metalinguistics وكذلك Psycholinguistics, Sociolinguistics وهكذا . انظر فى ذلك : Hymes, op. cit. p. 93

(٢٥) تؤخذ الرموز فى كثير من الكتابات بمعنى واسع فضفاض بحيث نجد عالما من اهم علماء الانثربولوجيا وهو رادكليف براون Radcliffe-Brown يعتبر أن كل ماله معنى رمز وان المعنى هو اى شيء يمكن التعبير عنه بالرمز ومع ان الرموز لها معان على اعتبار انها تمثل اشياء اخرى الا انه ليس من المفيد ان نعتبر كل مايمثل شيئا آخر رمزا ، فالتارة المرور الخضراء مثلا ـ على مايقول جون بيتي علامة على شيء آخر وهو ان من الممكن العبور فى امان ، ولكن ذلك لا يجعل الضوء الاخضر رمزا على ان هناك من يرون فى اشارات المرور الضوئية معنى رمزيا . وعلى ذلك فمن المفيد التمييز بين نوعين من العلامات او الاشياء التي لها معنى والتي تمثل شيئا آخر غيرها هي ذاتها : فهناك اولا الاشارات Signals التي تعطى معلومات عن اوضاع معينة فى الماضي او الحاضر او المستقبل ، ووظيفتها هي انها تنقل رسالة محددة ، كان يؤخذ الضوء الاحمر على انه يعني وجود خطر . والحيوانات تعمل مثل هذه الاشارات فى كثير من الاحيان ولكنها تفتقر الى القدرة على التفكير الرمزى . وقد تكون العلامات مسائل اتفاقية بحتة كما هو الحال فى اللغة ، وليس ذلك هو الحال بالنسبة للرموز حيث يكون هناك فى العادة سبب واضح لان نرمز الى موقف معين او حالة معينة برمز معين بالذات . وتختلف الاسس التي تقوم عليها ملاءمة الرموز للاشياء التي ترمز اليها . فقد تكون هناك مشابهة حقيقية او متخيلة بين الرمز وما يرمز اليه مثل اعتبار اللون الابيض رمزا على العفة والطهارة والنقاء ، او قد يكون الرمز مستمدا من بعض الوقائع التاريخية فى حياة الفرد او المجتمع او الثقافة مثل بعض الرموز الطوطمية الموجودة لدى كثير من الجماعات القبلية . وثمة اختلاف آخر بين الرموز والعلامات او الاشارات وهو ان الرموز تتضمن وتشير دائما الى فكرة مجردة وليس الى حادث معين او الى شيء مادى ملموس . فليس هناك حاجة لان نرمز الى الصخور او الابقار او الاشجار وما اليها من الاشياء ، مع ان هذه الاشياء ذاتها قد تصبح رموزا لاشياء غيرها . فما يرمز اليه فى كل اللغات والثقافات هو اشياء مجردة مثل القوة او التماسك الاجتماعي او السلطة العائلية او السياسية ، وهذا هو اهم عنصر فى الرموز من الناحية الاجتماعية . فهي تزود الناس بوسيلة لتمثيل الافكار المجردة خاصة وان الحياة اليومية تشغل معظم تفكير الناس عن ان يحاولوا التفكير فى كثير من الامور المجردة مثل تماسك الجماعة ، بينما نجد ان فكرة العلم مثلا الذى يرمز الى الوطنية تقوم بهذه الوظيفة . وعلى اى حال فان الرمز مسألة تعبيرية فى اساسها فهى طريقة لقول الاشياء المهمة التي يستحيل قولها بطريقة مباشرة ، والشيء الذى يقال رمزيا لا بد من التفكير فيه حتى يستحق ان يقال ، اى انه شيء يرمز اليه لان له قيمة عالية . راجع فى ذلك : Beattie; S.; Other: Cultures, The Free Press, N.Y. 1964, pp. 69-71.

الناس في هذه المجتمعات وانواع الاشياء التي يعتقدون باهميتها بالنسبة لهم وكذلك في الطرق التي يمثلون بها لانفسهم العالم الفيزيقي والاجتماعي والاخلاقي الذي يعيشون فيه . ومن البديهيات الايستمولوجية – كما يقول جون بيتي John Beattie – ان الناس يرون ما يتوقعون رؤيته وان انواع مدركاتهم تتحدد بدرجة كبيرة – ان لم يكن كلية – بالنسبة الى الاوضاع الاجتماعية والثقافية التي يعيشون فيها (٣٦) . وقد سبق ان رأينا كيف ان النوير الرعاة يستطيعون التمييز بين مئات الانواع من الماشية عن طريق الرجوع الى اللون وشكل القرون وما اليها ، فان عندهم لها كلها اسماء محددة . بينما البقرة بالنسبة للشعوب الزراعية تكون مجرد بقرة . فالتمييزات بين الاشياء توجد اذن في بعض الثقافات دون الاخرى ، او توجد بطريقة مختلفة في الثقافات المختلفة على ما رأينا حين تكلمنا عن التمييزات القرابية في المجتمعات الانسانية المختلفة . فالناس في المجتمعات المختلفة والثقافات المختلفة ينظرون الى العالم الذى يعيشون فيه نظرات مختلفة جذرا على ماذكرنا . وليست المسألة هي مجرد الوصول الى نتائج مختلفة من نفس الشواهد والبيانات ، بل ان الشواهد التي يعتمدون عليها في مختلف الثقافات قد تكون هي ذاتها مختلفة ايضا . وعلى حد قول بيتي في ذلك ، اذا كان الناس جميعا « يعيشون » – بمعنى ما – في عالم واحد فانهم « يسكنون » – بمعنى آخر – في عوالم مختلفة . (٣٧) وهذا امر سبقت الاشارة اليه حين ذكرنا رأي سابير ومن بعده فورف من ان الشعوب التي تتكلم لغات مختلفة تعيش في « عوالم من الواقع » مختلفة وان اللغات التي يتكلمونها تؤثر بدرجة كبيرة في مدركاتهم الحسية وفى انماط تفكيرهم المعتادة . والدراسات التي قام بها فورف على لغة قبائل الهوبى Hopi في امريكا ومقارنتها بلغات غرب أوروبا بينت له بوضوح ان قواعد اللغة عند كل المجموعتين لها صلة وثيقة بثقافاتهم الخاصة . ولم يقتصر فورف في ذلك على مقارنة الالفاظ او المصطلحات وانما تطرق الى مقارنة بعض المفهومات والمقولات مثل مقولتي الزمان والمكان كي يعرف اذا ما كانت هذه المفهومات عامة بالنسبة لجميع البشر ولها نفس المعنى او انها تتاثر ببناء لغات معينة بالذات ، وهل هناك علاقات يمكن التعرف عليها بين المعايير الثقافية والسلوكية والانماط اللغوية الكبرى . ولم يكن هدف فورف من ذلك ان يتبين ما اذا كان هناك ارتباط بين اللغة وبقية الثقافة بالمعنى الساذج البسيط مثل محاولة البحث عن مدى وجود علاقات بين البناء اللغوى وبعض ملامح الثقافة السائدة في مجتمعات معينة بالذات لها طابعها الاجتماعي والاقتصادى العام ، كأن يقارن مثلا بين هذه الامور في حياة القنص وحياة الزراعة لان محاولات ربط اشكال معينة من المورفولوجيا اللغوية بمراحل معينة من التطور الثقافي هي محاولات فجة وساذجة بل وغير مجدية . انما كان هدف فورف من هذه المقارنات هو ان يبين لنا عن طريق المقارنة بين اللغات نواحي التعارض الاساسية في التفكير العادي عند الشعوب المختلفة ، وان هذا التعارض يتعلق بما يسميه فورف « الكون الصغير » او « العالم الصغير » الذى يحمله كل شخص في داخله ويستخدمه في قياس وفهم العالم الكبير ، وبالتالي فان نظرة الانسان الى العالم الخارجي الواقعي تحددها نشأته اللغوية ، وهذا هو السبب في اختلاف نظرة الاسكيمو مثلا الى الثلج ونظرة الهنود الحمر الى الكلب الذى ينبح ونظرة النوير الى الماشية في الامثلة التي سبق ذكرها عن نظرة الرجل الاوربي الى هذه الاشياء ذاتها .

بل ان الامر يتعدي ذلك الى المقولات الاساسية مثل مقولة الزمان ومقولة المكان كما سبق ان اشرنا ، اذ لدى الناس في مختلف الثقافات تصورات مختلفة عن هذه المقولات . فهندى الهوبي

---

(٣٦) Ibid, p. 75 .

(٣٧) Loc. Cit.

مثلا لا يتصوره الرجل الاوروبي على انه امتداداو استمرار Continuum يمكن تشبيهه ـ من هذه الناحية ـ بالمكان حيث تحتل الاحداث المختلفة « مواقع » معينة فى تتابع مستمر لا ينتهي وبحيث يمكن ترتيب هذه الاحداث أحدها بالنسبة للآخر فيقع بعضها بذلك قبل الآخر او بعده ، وانما هم يفكرون فى الزمن فى الفاظ وحدود البرهة او الآونة او الفترة التي تستغرقها التجربة مباشرة ، اى انهم يفكرون فى حدود « الوقت الحالي » اوالآن على الاصح او « قبل الآن » او « بعد الآن » ، وبذلك فانهم يميزون بين الاحداث بالاشارة الى قربها او بعدها بالنسبة لوقت الكلام عنها ويعجزون عن رؤية العلاقة فى الحدوث بينها هي ذاتها او بالنسبة الى مقياس زمنى موضوعي . فكأن اساليب وطرق التفكير عند هذه الجماعات فى الثقافات الاخرى ، او ما يمكن تسميته على العموم بتصوراتهم الجماعية ، تختلف اختلافا جوهريا عن اساليب وطرق التفكير فى المجتمعات المتقدمة الحديثة . وهذا هو السبب فى ان الكثيرين من الناس يصعب عليهم ان يفهموا تفكير غيرهم ممن ينتمون الى ثقافات اخرى مغايرة او أن يروا الاشياء من نفس وجهة النظر ومن نفس الزاوية وبنفس الطريقة . ورغم كل ما يقال عن امكان التغلغل الى عقول الآخرين فى الشعوب والمجتمعات الاخرى وفهم معتقداتهم وقيمهم والمبادىء التي توجه حياتهم فان هذا « التغلغل » محدود ولايمكن ـ فى رأى الكثيرين من علماء الانثربولوجيا اللغوية ـ ان يصل الى رؤية الاشياء والامور مثلما يرونها تماما ، ولو تم ذلك فانه يعني شيئا واحدا وهو الانسلاخ عن ثقافة المجتمع الذى ننتمى اليه ودخولنا فى ثقافة المجتمع الآخر (٣٨) .

★ ★ ★

وهذا ينقلنا الى موضوع آخر له على أية حال صلة وثيقة بكل ماسبق ونعنى به موضوع العلاقة بين الفكر واللغة من ناحية وامكان الترجمة من لغة لاخرى من ناحية ثانية . فالمشاهد على العموم وبخاصة فى الدراسات الانثربولوجية انه كثيرا ما تترجم معتقدات الشعوب غير المتعلمة او « البدائية » الى احدى اللغات الحديثة وبخاصة اللغات الاوروبية ، فتظهر هذه المعتقدات فى صورة فجة وتبدو غير معقولة وخالية تماما من المعنى وبل ومتناقضة بعضها مع بعض فى كثير من الاحيان . ومن الامثلة على ذلك ان النوير لهم نظرة خاصة الى التوائم ويشيرون اليهم على انهم « طيور » ، وحين يعبرون عن تلك النظرة فانهم لايقولون ان التوائم يشبهون الطيور وانما يقولون عنهم انهم طيور فحسب . ويقع كثير من الانثربولوجيين فى الخطأ حين يتصورون ان النوير يعتقدون ان التوائم البشرية والطيور كائنات متشابهة ومتماثلة من كل الوجوه ، بحيث لا يستطيع الرجل النويرى ان يفرق بين الاثنين حين يراهما . ومن هنا كان لابد للانثربولوجي حين يدرس الثقافة النويرية ان يحتاج ليس فقط الى ان يفهم انماط التفكير عندهم فيما يتعلق بالتوائم والطيور بل وان يدرس ايضا لغتهم والصورة التي يعبرون بها عن افكارهم وتصوراتهم عن العالم ونظرتهم اليه ، لأن هذين الامرين مرتبطان معا ارتباطا وثيقا بحيث يصعب فهم احدهما دون الآخر . فعن طريق فهم اللغة والطريقة التي تستخدم بها يمكن ان يكون للحكم بان التوائم طيور معنى ، وان النويرى حين يقول ذلك فانه لايعني ان التوائم والطيور متماثلان بل يريد ان يقرر ان التوائم يأتون من الله أو من الروح المرتبطة بالسماء التي هي مملكة او مجال الطيور . وعلى ذلك فان ثمة نوعا من التماثل الفكرى او التصورى الذى يصل الى حد التوحيد بين التوائم والطيور مما يبرر الكلام عن التوائم فى حدود والفاظ الطيور فالحكم الذى يقرره النوير عن التوائم يجب الا يؤخذ على انه قضية علمية تخضع للاختبار عن

---

(٣٨) Ibid, p. 76    Hoijer; in Kroeber, op. cit., pp 561—4

طريق التجربة بنفس الطريقة التي يمكن بها اختبار قولنا ان الماء يغلي على درجة ١٠٠ مئوية . فالحكم هنا بالتشابه هو من النوع التماثلي او الشعرى بين المفهومين او الفكرتين ، وهذا هو ماسبق لعالم الاجتماع الفرنسي الشهير لوسيان ليفي بريل Lucien Levy-Bruhl ان انتبه اليه وقرره حين اكد الخاصة الشعرية او التماثلية للتفكير البدائي . وكما يقول جون بيتي، اننا مازلنا نجهل الشيء الكثير عن العمليات الفكرية المنطقية لدى الشعوب الاخرى التي تسلك طرقا اخرى غير الطريقة العلمية التجريبية السائدة فى العالم المتحضر الحديث . وهذا نفسه يصدق على الثقافات السائدة فى الجماعات الريفية فى أوروبا ،مثلما يصدق على القبائل التي توصف بانها قبائل ( بدائية ) . وسوف يكون من التعسف ومن الاجحاف بقدرة اللغة على نقل الافكار اذا اعتقدنا ان التعبير اللفظي لن يكون له معنى الا اذا تلاءم تماما مع قواعد القياس والاستنباط والاستقراء(٣٩) . انما المهم من هذا هو انه ليس من السهل نقل الفكر من لغة لاخرى نظرا لان الكلمة الواحدة تكون مرتبطة ارتباطا وثيقا بالفكرة التي تعبر هذه الكلمة عنها وبالظروف الاجتماعية والثقافية بل وبانماط السلوك ونظرة الشخص فى الثقافة المعينة الى العالم ككل ، ومن هذه الناحية يكون من الصعب العثور على مرادف حقيقي للكلمة فى لغة اخرى مختلفة تنتمي الى ثقافة مختلفة . بل ان بعض الغلاة فى هذا الشأن يذهبون الى حد القول بأنه من المستحيل « الترجمة » من جملة لاخرى داخل اللغة الواحدة على اعتبار ان ثمة علاقة عضوية بين الفكر واللغة بل أن الفكر هو اللغة على حد قولهم . وهي مسألة تعرضنا لها فى الصفحات السابقة .

**( ٤ )**

بيد ان هذا القول الاخير او اخذناه على علاته فسوف يترتب عليه صعوبة التقاء الفكر او على الاصح صعوبة تقارب الافكار فى المجتمعات والثقافات المختلفة فضلا عن توحيدها . وليس من شك فى ان اللغة الواحدة توحد بين الناس الذين يتكلمونها والذين يؤلفون جماعة كلامية واحدة . ومع ذلك فان اللغة فى عمومها تعتبر من أهم العوامل التي تساعد على التفرقة وعلى الانقسامات داخل الجنس البشرى فى عمومه ،سواء بين الافراد او الاجناس والسلالات او الثقافات . ويرجع ذلك الى تنوع اللغات واختلافها اختلافا هائلا وميل كل جماعة بطبيعة الحال للتمسك بلغتها والدفاع عنها وعن كيانها ووجودها، وبذلك فان العامل الذى كان يراد منه او يفترض فيه ان يساعد على تجانس الثقافة يصبح هو نفسه مصدرا لاعمق الاختلافات والصراعات وسببا من أهم اسباب التفرقة بين الناس (٤٠) والقضاء على التماسك والتناسق فى

---

( ٣٩ ) Beattie, op. cit., pp. 68—9

( ٤٠ ) يقول ارنست كاسيرر فى ذلك انه بدون الكلام لا يمكن قيام اى جماعة انسانية ، ومع ذلك فليست هناك عقبة أكثر قسوة لقيام الجماعة الانسانية الموحدة من تنوع الكلام واختلاف اللغات . وترفض الميثولوجيا والدين اعتبار هذا التنوع ضروريا او حقيقة لا يمكن اجتنابها وتحاشيها ،بل انهما يردان هذا الاختلاف والتنوع الى خطيئة الانسان اكثر منهما الى تركيبه او تكوينه الاصلى او الى طبيعة الاشياء . ففي كثير من الاساطير نجد مماثلات واضحة لقصة برج بابل المشهورة التي وردت فى العهد القديم . وحتى فى العصور الحديثة كثيرا ما يحن الانسان الى « العصر الذهبي » حين كان الناس جميعا ، او الجنس البشرى فى عمومه ،يتكلم لغة واحدة ، وينظر بالتالي الى حالته الاولى على انها الحقبة المفقودة او فردوسه المفقود ، كما لايزال يحلم بقيام « اللغة الادمية او الانسانية Linguo Adamica او « اللغة الحقيقية » التي كان الاسلاف الاوائل يتكلمونها والتي لم تكن تتالف من مجرد اشارات وعلامات اتفاقية وكانت تكفى على اية حال للتعبير عن طبيعة الاشياء وجوهرها . وقد ظلت مشكلة هذه اللغة الانسانية او اللغة الادمية او اللغة الحقيقية تناقش بجدية بين المفكرين والفلاسفة والصوفية حتى القرن السابع عشر ( انظر Cassirer, op. cit, p. 167—68 )

المجتمع الانساني ككل . فمع ان اللغة تسهل الاتصال داخل الجماعة الواحدة فانها تزيد من وضوح الاختلافات الثقافية بين الجماعات المختلفة وبالتالي تساعد على ارتفاع الحواجز بينها . ومع ان هناك اختلافات واضحة داخل الأنواع الحية الاخرى فان حدتها ــ على مايقول كيسلر ــ لاتصل الى ما تجده عند الجنس البشرى نظرا لعدم وجود الحواجز اللغوية التي تؤدى الى التفرقة على كل المستويات : الامم والقبائل والجماعات الاقليمية، بل والطبقات المختلفة والمهن والتخصصات وما الى ذلك حتى داخل المجتمع الواحد . ( انظر فى ذلك كتاب آرثر كيسلر عن « العفريت والآلة » الذى سبقت الاشارة اليه صفحة ٣٠٩ ) .

فكأن تعدد اللغات وتنوعها هو سبب من أهم اسباب ما تعانيه الانسانية الآن وفى كل وقت مضى من صراع ونزاع وتفرق ، خاصة وان كل جماعة ــ كما ذكرنا ــ تميل الى التمسك بلغتها باعتبارها رمزا لوجودها . وواضح ان اللغات الكبرى تميل الى ان تنتشر وتوسع من دائرة نفوذها على حساب اللغات « الصغرى » (٤١) . وان كانت هناك جهود ضخمة للمحافظة على لغات الاقليات بل والعمل على تقويتها ، اى ان انتشار اللغات الكبرى يقابل بردود فعل عنيفة من اللغات الصغرى ، لان اى محاولة لفرض لغة بدلا من اخرى معناه تهديد كيان الجماعة التي تتكلم تلك اللغة ، وفى هذه الحالة لاتعتبر اللغة مجرد وسيلة للاتصال وانما تصبح رمزا او شعارا يرتبط بمشكلة الحرية الشخصية . ويبدو صراع اللغات فى كل المجتمعات الانسانية حتى المتقدمة منها ، وكثيرا ما يترتب عليه مشاكل اجتماعية وسياسية خطيرة قد تودى بتماسك المجتمع او على الاقل تهدد ذلك التماسك حين يتخذ ذلك الصراع شكل الصدام العنيف على ما يحدث مثلا فى بلجيكا فى الصراع العنيف الذى يثور من حين لآخر بين المتكلمين بالفرنسية والمتكلمين بالفلمنكية ، او الصراع بين الفرنسية والانجليزية فى كندا ، او بين المهاراتي Maharati والجوجوراتي Gujurati فى الهند . وهكذا نرى ان « الانسان العجيب » له قدرة فذة على ان يحول كل المزايا والنعم الى لعنات ومساوىء ونقم تهدد حياته هو نفسه ووجوده فى المحل الأول .

ولقد بذلت حتى الآن محاولات عديدة لخلق او صنع لغة دولية قد تساعد على التقريب بين البشر بأن تكون لغة ثانوية او اضافية للتفاهم ان لم تفلح فى ان تحل محل كل تلك اللغات الكثيرة المتنوعة ، وليست الاسبرانتو الا حالة واحدة لتلك المحاولات الكثيرة لايجاد لغة ( صناعية ) . والواقع انه على الرغم من كل ما قيل عن تفاوت اللغات وتباعدها وتعددها وتنوعها فان الظروف التي تسود العالم فى الوقت الحالي تساعد بشكل او بآخر على تقارب الافكار ، اذ يستطيع المرء الآن ان يتكلم الى العالم كله بعد ان تضاءلت المسافات الفيزيقية . وكلما تقدم القرن العشرون زادت المعرفة بالعالم وتكاملت وتقاربت معلومات الناس ومعارفهم بعضهم من بعض وهذا سوف يزيد بغير

---

(٤١) على ان هناك الآن ما يقرب من الفى لغة فى العالم فان الغالبية العظمى من هذه اللغات تسود فى جماعات قليلة العدد وقد لايتعدى عدد من يتكلمونها بضعة عشرات الالاف كما هو الحال فى كثير من « اللغات » الافريقية مثلا ، او كما هو الحال فى غينيا الجديدة حيث يصل السكان الى مليوني نسمة يتكلمون حوالي ٧٥٠ ( سبعمائة وخمسين ) لغة مختلفة على ما تقول عالمة الانثربولوجيا الامريكية الشهيرة مارجريت ميد . وعدد قليل جدا من لغات العالم يتكلمه اكثر من خمسين مليونا من الناس ، وربما لا يزيد عدد هذه اللغات فى الوقت الحالي على اثنتى عشرة لغة ( فيما عدا الصينية ) هي على الترتيب :

الانجليزية ( ٢٦٥ مليونا ) والاندو اوربية ( ١٨٥ ) والروسية ( ١٨٠ ) والاسبانية ( ١٤٥ ) والالمانية ( ١٠٠ ) واليابانية ( ٩٥ ) والعربية ( ٩٠ ) والبنغالية ( ٨٥ ) والبرتغالية ( ٨٥ ) والفرنسية ( ٦٥ ) والملايوية ( ٦٠ ) والايطالية ( ٥٥ ) .
راجع فى ذلك : Potler, op. cit., p. 29.

شك ثروة الالفاظ ويساعد على ارتقائها ونقائها . ويبدو ان تقدم العلم والتكنولوجيا التي تعتبر طابع الحضارة الحديثة ثم انتشارها فى كل انحاء العالم وانتشار المصطلحات العلمية وتقبلها من الجميع فى كل المجتمعات المختلفة بالاضافة الى قبول الجميع للرموز الرياضية تشير كلها الى امكان التوصل الى لغة دولية موحدة ، وانه لو تم ذلك فانه سيكون بفضل جهود العلماء والفنيين الى حد كبير . فالعلم والتكنولوجيا يسهمان الآن باضافة كثير جدا من المصطلحات الجديدة الى المفردات والالفاظ فى كل اللغات الحية وبسرعة اكبر بكثير جدا من كل الجهود المبذولة فى مختلف نواحي النشاط الانساني ، ويعتبر ذلك مثالا واضحا على مدى العلاقة الوثيقة بين اللغة والحضارة . وليس من شك فى ان انتشار لغة العلم الحديث الى المجتمعات المختلفة هو مدخل هام لتقبل الحضارة العلمية والتكنولوجية الحديثة . ولقد أحرز تعليم اللغات فى بعض الدول الراقية تقدما هائلا عن طريق ربط تدريس اللغة بالتعريف بالعالم وحضاراته المختلفة ، كما يحدث فى مدارس القرى فى الدينمارك مثلا حيث يتعلم اطفال القرية لغتهم عن طريق تعريفهم بالبيئات المختلفة وانماط الحياة والعلاقات الانسانية التي تحيط بهم ، ليس فى قريتهم الصغيرة وانما فى العالم الخارجي بحيث يتسع النطاق امامهم تدريجيا من مجال العائلة الى المدرسة ثم القرية بكل مافيها من موظفين ثم المنطقة المحيطة بالقرية فالمقاطعة فالدينمارك كلها ثم العالم اجمع ، وذلك فى سلسلة من الصور بالاضافة الى القيام برحلات أثناء العطلات الى الخارج ، حتى يتيسر لهم رؤية بعض ما شاهدوه فى تلك الصور ، وتزويدهم أثناء ذلك بالالفاظ والكلمات الاجنبية اللازمة ، وهذا كله يزيد من الثروة اللغوية عندهم ويعرفهم بالعالم ويحيي فيهم الرغبة لدراسة اللغات الاخرى . وفى هذا العالم الحديث الذى تلعب فيه وسائل الاعلام المختلفة دورا هاما فى تقريب المعلومات المعقدة من افهام اوساط الناس تقوم اللغة والكلمة المنطوقة المسموعة او الكلمة المكتوبة باهم وظيفة لها وهي نقل الحضارة الحديثة من كل انحاء العالم المتقدم الى أصغر المجتمعات المحلية البعيدة المنزوية ، وبذلك تسهم فى ان يسود العالم حضارة موحدة بكل ما قد يترتب على ذلك من تضييق الهوة بين مختلف الشعوب والجماعات .

* * *

# المراجع

**Alland, A.**; Evolution and Human Behaviour, Tavistock, London 1969.

**Beals, R.H. & Hoyer, H**; An Introduction to Anthoropology, Macmillan, N.Y. 1968.

**Beattie, S.**; Other Cultures, Free Press, N.Y. 1964.

**Bernstein, B.**; A Socio-Linguistic Approach to Social Learning, in Gould, J. (Ed.), Penguin Survey of the Social Sciences 1965, Penguin Books, London 1965.

**Calder, R.**; After the Seventh Day: The World Man Created, Mentor, N.Y. 1962.

**Cassirer, An Essay on Man** (1944), Anchor Books, Doubleday, N.Y. (N.D.).

**Childe, E. Gordon**; Man Makes Himself, Fontana Library, Collins, London 1966.

**Clarke, G.**; Archaeology and Society, Methuen University Paperbacks, London 1960.

**Cohen, M.**; Pour une Sociologie du Language, Albin Michel, Paris 1956.

**Emmet, E.R.**; Learning to Philosophize, Pelican Books, London 1968.

**Ervin, Susan M.**; Language and Thought in Sol Tax (Ed), Horizons of Anthropology, Aldine, Chicago 1964.

**Gellner, E.**; Worlds and Things, Pelican, London 1968.

**Gerth, H. & Mills, C.W.**; Character and Social Structure, Routhedge and Kegan Paul, London 1965.

**Greenberg, I.H.**; Historical Linguistics and Unwritten Languages, in Kroeber, (Ed.) Athropologu Today, Chicago U.P. 1953.

——— Language and Linguistics in Berelson, B. (Ed): The Behavioral Sciences Today, Harper, London 1964.

**Hoijer, H.**; Language and Writing in Shapiro, H.L.; (Ed.): Man, Culture and Society, Oxford University Press, N.Y. 1960.

**Hymes, Dell H.**; A Perspective for Linguistic Anthropology in Sol Tax (Ed.) op. cit.

**Kluckhohn, C.**; Mirror for Man, Premier Books, N.Y. 1959.

**Koestler, A.**; The Act of Creation (1964), Pan Books, London 1966.

—— The Ghost in the Machine, Mutchinson, London 1967.

**Kroeber, A.**; Anthropology: Culture Patterns and Processes, Harbinger, N.Y. 1963.

**McLuhan, M.**; Understanding Media: The Extension of Man, Sphere Books, London 1968.

**Peacock, J.L. & Kirsch, A.T.**; The Human Direction, Appleton — Century — Crofts, N.Y. 1970.

**Pei, Mario.**; The Story of Language, Mentor Books, N.Y. 1960.

**Potter, Simeon.**; Language in the Modern World, Pelican Books, London 1968.

**Sapir, E.**; Culture, Language and Personality, California, U.P. 1960.

**Whitehead, A.N.**; Modes of Thought (1938), The Free Press, N.Y. 1968.